رواية

بلا عنوان

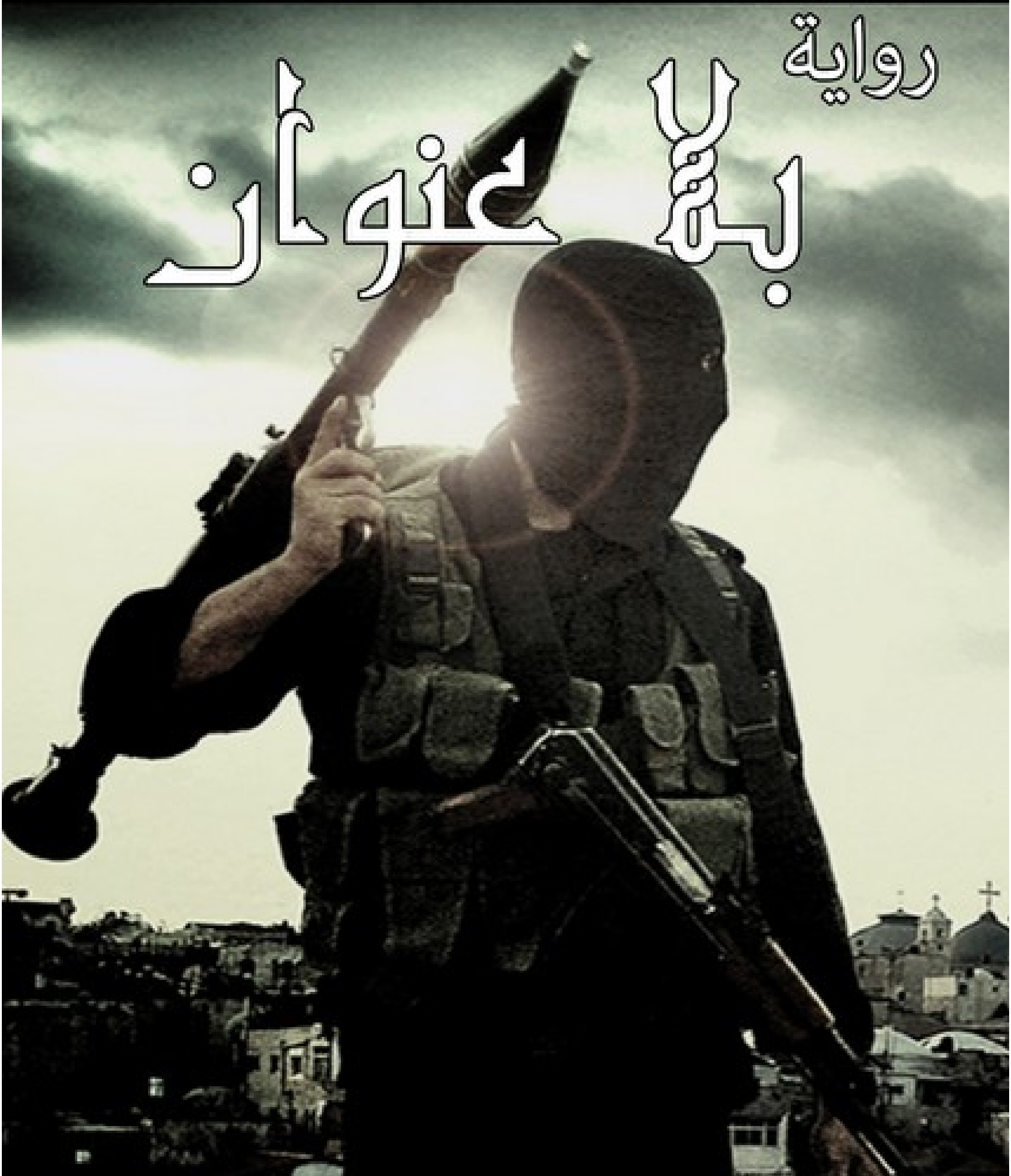

تأليف:

أُحمد الاغي

مراجعة لغوية:

سلمى أُسامة

رواية بلا عنوان

لأحمد الناغي

(2014)

مراجعة لغوية: سلمى أسامة

معلومات تهمك

الرواية أحداثها لا تدور في مصر، ولا في أيـة دولـة عربيـة، ولا يقصد مـن خلفهـا إسـقاطات سياسـية، أو التـذكير بأحـداث تاريخية، هـي فقـط وفقـط مـن خيـال المؤلـف، وأي تشـابه في الأسماء أو الأحداث فهو فقط من خيال القارئ.

حقوق الطبع غير محفوظة، قم بالطباعة والنشر إذا أعجبتك.

يمنح حق نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بـأي وسيلة تصويرية أو الكترونيـة أو ميكانيكيـة بمـا فيـه التسـجيل الفوتـوغرافي والتسـجيل على أشرطة أو أقـراص مقـروءة أو أي وسـيلة نـشر أخـرى بمـا فيهـا حفـظ المعلومـات، واسـترجاعها دون إذن خطي من الكاتب.

يمنع منعا باتا استبدال أو حذف أو إضافة، أية معلومات، أو هوامش أو تعليقات على الرواية عند إعادة طبعها أو نشرها، دون موافقة خطية من الكاتب، ويسـمح فقـط بكتابـة مقدمـة يكتب بها الناشر ما يشاء.

إن الآراء والأفكار الورادة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن كاتبه أو حامله أو متداوله أو ناشره.

الفهرس

0.	تمهيد	5
1.	الحقير	6
2.	الصياد	11
3.	التاجر	16
4.	الطالب	22
5.	البديل	27
6.	المذيع	32
7.	الشيخ	37
8.	الجنرال	42
9.	المتمرد	46
10.	الزوار	51
11.	المسجون	56
12.	الميدان	62
13.	السفاح	67
14.	العائد	71
15.	الشريف	77

تمهيد

قبل الغروب بدقائق، أصوات دق أجراس الكنيسة تجوب المكان، يتحرك في خطـوات هادئة ثابتة إلى خارج الكنيسة، فتى في مطلع العشرين من عمره، وأنفاسه ثقلـت إثـر حملـه حقيبته الكبيرة الحجم نسبيا، إلى أن استوقفه صوت أنثوي رقيق:

"جوزيف، استنى.."

فيلتفت خلفه بحذر إلى صاحبة الصوت الرقيق، وينتظر أن تكمل جملتها دون أن يرفع عينيه إليها.

"انت مصمم تمشي! كل ده بسببي! حبيبي متزعلش مني!"

"يوستينا أنا مش زعلان منك، أنا زعلان عليكي"

"بس انت خلاص قررت تسافر وتسيبني"

"أيوة يا يوستينا، انا قررت أمشي من هنا، ومش عارف الحالة الجديدة اللي انا رايحلها هتكون عاملة ازاي، ومش متأكد اذا كنت هقدر أعيش ولا لأ، بس اللي متأكد منه إن قراري ده صح!"

"مش انت لسه بتحبني! ازاي بتقولي انك هتمشي ده صح!"

"في حاجات بنعملها بعقولنا قبل قلوبنا، وانا كمان قلبي عاوز ده!"

"تعبت مني؟"

"مقصدش تعبت، بس في حاجات لازم أروحلها"

تبكي، "للدرجة دي مش قادر تستنى معايا دقيقتين على بعض، وحتى مش قادر تجيب عينـك في عيني"

يتمم جوزيف: "أستغفر الله"

يوستينا: "طب مفيش حاجة نفسك تقولهالي قبل ما تمشي؟"

فيبتسم ابتسامة عريضة، وهو يقول: "أنا عرفت إن جوزيـف هـو يوسـف بـالعربي، اتحـورت ليوسيف وبعدين جوزيف، ايه رأيك؟"

تقترب منه محاولة لاحتضانه وهي تبكي، فيتحرك مبتعدا عنها بجسده "سلام يا يوستينا، لـو في نصيب هنتقابل بعدين، وفي ظروف أحسن من دي أكيد ان شاء الله"

تردد خلفه "ان شاء الله"

يسير مبتسما وهو يجر حقيبته مبتعدا في الساحة ولسان حاله يقول: "لأن يطعـن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له مـن أن يمـس امـرأة لا تحـل لـه"، ويسـير إلى أن يضـع حقيبته داخل السيارة، ثم يتحرك نحو باب السائق، ليسمع صوت مناد مـن خلفـه، فيلتفـت، ثم يسمع صوت رصاصة مدوية متردد صداها في الساحة أمام الكنيسة.

الفصل الأول:

الحقير

كان علي أن أقاتل خلال حياتي بأكملها لأظل حيّا،
جميعهم كانوا ضدي، ولكنني هزمت حقرائهم،
وتركتهم مختبئين في الخنادق.

تاي كوب، لاعب بيسبول أمريكي.
1961 - 1886

كنت جالسا كعادتي في الزنزانة، وحيدا، بانتظار الفريسة القادمة، الشخص الذي سأقوم بالإيقاع به؛ هكذا هو دوري في السجن؛ أحد كبار الضباط وعدني بأنني سأقضي أقل من نصف المدة المفروضة عليّ إن قمت بمساعدته على الإيقاع بالمجرمين، وخاصة الإرهابيين منهم. خدمة صغيرة أساعد بها دولتي وتكافئني على ذلك من خلال بعض الامتيازات الإضافية.

طُلب مني أن أرتدي أنواعا معينة من الملابس التي تم تسليمها لي، جلباب أبيض، وغطاء للرأس، وأن أطلق لحيتي، وأن أتحدث بهيئة الشيوخ، فيشعر السجين الجديد بالراحة إليّ، وأكسب لديه الكثير من الثقة، خاصة حينما يعرف أننا سنمضي الكثير من الوقت سويا، وأنه يجدر به التحدث إلى أحد.

استطعت انتزاع الإعترافات من الكثير، خاصة الشباب صغيري السن، فلا يكون لديهم خبرة سابقة بأمثالي ممن يطلقون عليهم اسم الصراصير، ويظنون أننا نوشي بهم إلى الضباط، وهذا ليس حقيقيا، نحن فقط نقوم بدورنا على أكمل وجه، نقل المعلومات، من أجل رفعة الوطن، وسلامة أراضيه.

في تلك الليلة، فتح الباب، وتم القاء شخص معصوب العينين إلى بالداخل وهو يصرخ: "أنا فين! أنا فين يا ظلمة!"، فأجابه أحد الحرس: "في جهنم، يا كافر!" لم تكن حفلة الاستقبال الخاصة به قد حانت بعد، فانطلقت مسرعا إليه وأنا اقول: "اصمد أخي!"، ثم قمت برفع الغطاء عن عينيه.

بدأ يحول بصره في أركان الزنزانة المظلمة، باحثا عن مصدر للضوء، ليتأكد من أنه لم يصب بالعمى، ولكنه لم يجد سوى ضوء خافت في ليلة غير مقمرة، فأجلسته إلى الحائط، وأعطيته بعض الماء، ثم سألته: "كيف حال اخواننا في الخارج!"

فنظر إلى مستغربا "أي اخوة؟"

فقلت: "اخواننا المجاهدين المرابطين على الثغور"، فانفجر ضاحكا، وقال: "يا أخي من تظنني؟ أحد زعماء الجماعات الجهادية؟"

فسألته: " إذن ما قصتك؟"، فسألني عن اسمي، فقلت له: "أخوك ابو عبدالرحمن"، فضحك مرة أخرى، وسألني عن اسمي الحقيقي، فقلت له: "محمود"، فقال: "كذبت!"، فشككت أن يكون اختبار ولاء خاص بي، ولكن لم أكن لأفضح أمري، فأخبرته أنني لا أستطيع أن أخبره باسمي الحقيقي، فابتسم وأخبرني أنه سيطلق عليّ اسم عصفور، لأنه صوتي رفيع يشبه صفير العصافير، وأخبرني ان اسمه شريف، فعاودت سؤاله عن قصته،

فرفض إخباري بـأي شئ دون أن يحـدد مقابـل، فكـان علبـة سـجائر في حقيبتـه يريـد إدخالها، وبما أنني أقدم منه هنا، قد استطيع طلب هذا مـن أحـد العسـاكر الموجـودين بالخارج لإحضارها.

لم يخبرني بالكثير، فقط النـذر القليـل الغير كـافي، دارت القصـة حـول أنـه قـام بدعوة أحد المسحيين إلى الإسلام، ومكث معه فترة لا بـأس بهـا يـدعوه ويحـاوره، إلى أن أقنعه بدخول الإسلام، ورتبا سويا يوما للقـاء يشـهر فيـه ذاك المسـيحي إسـلامه، ولكـن المسيحي لم يأت، وأنه فوجئ بمجموعة من الجنود قامت بإلقاء القبض عليه وإحتجـازه، وقادته إلى هنا دون أن يعلم أين هو، أو ما السبب.

بالطبع لم أصدق هذه القصة، وشعرت بأن شريف هذا ثعلب ماكر، يخفي أكثر مما يظهر، فعدت أسأله عن ممارسة النشاط الديني، وهو ممنوع بموجب قـانون أقرتـه قوات الإحتلال منذ أعوام، فأجابني بنص الحديث: "لأن يهدي الله بك رجلا واحـدا، خير لك من أن يكون لك حمر النعم". فأجبته على الفور بمـا أحفـظ، أن الـدعوة إلى الإسـلام ليست واجبة علينا، وهذا هو العمل بنص الآية "لكم دينكم ولي دين"، لذا وجب علينـا تركهم لدينهم، وعليهم أن يتركونا لديننا، لم يجب حينها، فتركته للنوم.

في اليوم التالي طلبت مـن الضـابط المسـئول أن أتواجـد أثنـاء التحقيقـات مـع شريف، ولما رفض تعللت بمكر شريف، وأنه لـن يكـون سـهلا وأنـه يجـب علي التواجـد لأسمع كل حرف مما يقول لأستخدمه للحصول على اعتراف صريح منه، فوافـق، وطلـب منـي التواجـد في أحـد الغـرف المجـاورة، الـتي تتصـل بغرفـة التحقيقـات مـن خلال ميكروفون، وما أن مرت دقائق، حتى فُتح الباب، ودخل شريـف.

الضابط: "اسمك؟!"

شريف: "شريف محمد شاكر"

"سنك".. ثم بدأ في تحصيل معلومات عنه، وبدأ يسأله عن بعـض الجماعـات الإسـلامية، والإرهابية، والجهادية، ويستفسر منه عن وجـود نشـاط سياسي لـه، وكلما أنكـر شريف صلته بالسياسة أو بالجماعات كان يرد عليه الضابط في ثقة: "متقلقش، التحريات جايـة وكله هيبان، وهنطهر البلد منكم". واستمر التحقيق على هذا الحال فترة غير قصيرة، إلى أن باغت الضابط شريفا بسؤاله: "وايه علاقتك بجوزيف بقى؟!"

شريف في ثبات: "تقصد يوسف، الحمـد للـه ربنـا هـداه، وكـان نـاوي يسـلم، معرفـش مجاش ليه في الميعاد".

"وانت مالك يسلم ولا ميسلمش، انت هتختارله الدين اللي على مزاجك؟"

“أبدا، أنا بختارله دين الحق، ولا أنت مش مسلم يا باشا!”
“ملكش دعوة انا مسلم، مسيحي، يهودي، أو ملحد. انت مفكر نفسك نبي يالا!”
“حاشا لله، بس بيصعب عليّ اما ألاقي حد كويس وتايه عن حقيقة واضحة زي الشمس كده"
“واضحة زي الشمس! هي إيه دي بقى اللي واضحة زي الشمس؟"
“انه لازم يدخل الإسلام"
“أنا مفيش قدامي حاجة واضحة، غير انك انت اللي لازم تدخل السجن، وهجيبلك إعدام، انطق قولي قتلت جوزيف ليه؟"
“هو يوسف مات؟"
“ايوة يا سيدي مات، وانت متهم في قتله، لأنك على خلاف ديني معاه"
“أنا مش على خلاف ديني مع حد، أنا مأجبرتهوش على حاجة"
“انت قتلته عشان رفض يسمع كلامك؟ ولا عشان بعد ما دخلته الإسلام ملقاش اللي قولتله عليه فخرج"
“يا باشا اللي الإسلام يدخل قلبه، مبيخرجش منه أبدا"
"وحياة أمك يابن الـ***** لهخلي الحفلة عليك النهاردة، عشان تقولي اسلام تاني! انت مفكرهم كفرة؟! دول متدينين زيك بالظبط، بس انت اللي مش فاهم دينك"
“وإنت بقى اللي هتعرفني ديني؟!”
“أيوة أنا اللي هعرفك دينك يا كافر يا ابن الـ..”
ثم اكتفيت من سماع الشتائم وأصوات الضربات المتتالية، معلنة انتهاء التحقيق، والدخول لمرحلة التعذيب البدني.

كنت أعلم أن الضابط لن يسمح لي بالدخول إلى غرفة التعذيب، خاصة وهو على تلك الحال، فطلبت من أحد المساعدين أن يدخلني معه دون أن يشعر، فنصحني بالجلوس في أحد أركان الحجرة، فأراهم من حيث لا يرونني.

استمر التعذيب لساعات، وشريف صامد لا يتكلم، لم أرى في حياتي صمودا مثل صموده، فعرفت على الفور أنه قد تم إعداده بدنيا على مستوى عالٍ لتجاوز مرحلة التعذيب الجسدي بسهولة ويسر، فمل الضابط منه، وطلب حقنه بحقن فقد الذاكرة، وهي نوع من الحقن الذي يستخدم في حالات تعسر الوصول إلى معلومات مهمة أثناء انتزاع الاعترافات، فتجعل الشخص يعيش حالة هيستيرية ويتحدث عن كل ما يدور بداخله بدون وعي، ولكنه حينها لم يفصح عن أي معلومة جديدة.

قام الضابط بفك شريف من الكرسي، ليعطيه حرية الوقوف إن شاء؛ حتى يطمئن أنه غير مسيطر على نفسه تماما إن كان مشيه منتظم، ولكن عدم اتزانه أثناء الوقوف أزال كل هذه الشكوك، حيث وقف شريف عاريا أمام الضابط بعد أن قاموا بنزع جميع ملابسه عنه، وكبلوا يده بتلك الملابس، فلم يلبث ثوان حتى سقط فوق المنضدة التي عليها الإبر، ولكنه لم يصبه سوء، فقرر الضابط إعادته إلى الزنزانة، والانتظار قليلا ريثما أقوم بدوري مع شريف.

صباح اليوم التالي، نهض شريف وارتدى ملابسه بعد أن تركوه يقضي الليل عاريا على أرض الزنزانة الباردة، فقمت أتحدث إليه.

"كيف حالك اليوم يا أخي!"

"إني بخير ولله الحمد، لم أصب بأذى أمس."

"دعني أخبرك بشئ ما يقضي عنك عذابك."

"وما هو..!"

"أخبرهم كل ما تعرفه عن جوزيف.."

ولم أستطع إكمال الجملة، لم أدرك حجم الخطأ الذي اقترفته، كيف لي أن أعرف عن جوزيف هذا، وهو لم يخبرني قط، ثم شعرت بوخزة في ذراعي، وبدأت خلال ثوان أفقد السيطرة على جسدي، ولم أستفق إلا بعد ساعات، لم أجد شريف بالزنزانة، ولم أجد النافذة الحديدة بالزنزانة، كل ما وجدته هو علبة السجائر التي طلبها شريف، وبداخلها ورقة كتب فيها "شكرا لسذاجتكم".

الفصل الثاني:

الصياد

ما الذي ستستفيده من القتل؟ لا شيء.
ستقوم بقتل كلبا واحدا،
وسيقوم السيد بشراء آخر،
وهذا كل ما في الأمر.

مكسيم جوركي، أديب وناشط سياسي روسي
1936 - 1868

وإنني لأكره التعامل مع الأغبياء، هؤلاء الذين ابتلاهم الله في عقولهم فلا يستطيعون سوى التفكير فيما سيملأ بطونهم وأين سينامون وأشياء أخرى تافهة، ولا يدرون أننا نكرس جل وقتنا وحياتنا بأكملها للحفاظ على سلامتهم وأمن المجتمع، ولكن الأغبياء أمثال السيد الذي اخترته ليساعدني في الإيقاع بالمجرمين، هم من سيتسببون في فصلي من عملي، ولكن السيد كان على حق، حينما أخبرني أن شريف هذا ثعلب ماكر، كان علي أن اصدقه، وألا أدع شريف هذا يخرج من غرفة التعذيب حتى يقر بما فعل، أو أنهي أنا الموضوع بمعرفتي وعلاقاتي.

قضيت خمسة عشرة عاما كضابط متخصص في التحقيقات، استجوبت الآلاف من المجرمين، لم يستطع أحد منهم الصمود أمام حقن فقد الذاكرة، ولكن شريف هذا غريب بحق، كيف صمد!

لم أستطع النوم تلك الليلة التي فشلت فيها في استجواب شريف، ظللت مستيقظا طوال الليل، ولكن غلبني النعاس قبيل الفجر بقليل، استيقظت في الصباح التالي على صوت أحد المساعدين وهو يقوم بإيقاظني، ليخبرني بأن شريف السجين قد هرب. ذهبنا على الفور إلى الزنزانة لنر كيف هرب، لم يكن هناك آثار عنف أو شجار أو محاولات لتحطيم النافذة، الغريب في الأمر أن النافذة اختفت كليا.

بدأت بالتحقق سريعا من مكان النافذة قبل قدوم المتخصصين، لاحظت آثار احتراق شديدة، بدأت بشم المكان حتى وجدت رائحة تشبه رائحة البارود. أمرت بإحضار السيد إليّ سريعا لأسأله، فأخبرني أنه قد ضُرب بالأمس ولما استيقظ وجد الزنزانة على هذه الحال، ولم يجد سوى علبة السجائر والورقة.

كان المتخصصون من المعمل قد وصلوا لفحص الزنزانة، وقد أمرت مسبقا بإطلاق العساكر بحثا عنه في الجوار، وأمرتهم بإخراج الكلاب معهم للبحث عنه، ثم اتجهت لمكتبي لأفكر فيما سأفعل، طلبت كوبا من الشاي وجلست أفكر، كيف حدث هذا!

وصل الشاي سريعا، أوصله عسكري جديد لم أقابله من قبل، فسألته: "انت مين!"

"أنا جندي جديد هنا"

"حلوة جندي دي، انت اتنقلت امتى، ولا جيت امتى!"

"أنا متنقلتش ولا حاجة، انا جيت ازور زميلي هنا"

"وزميلك سابك وراح فين!"

"راحوا كلهم يدوروا على الجدع اللي هرب ده، ألا قولي هو هرب ازاي يا باشا؟"
"كلهم، مفيش حد هنا؟"
"مفيش غير الجماعة اللي تحت، لكن الدور ده مفيش فيه حد خالص"
"انا هشرب الشاي واطلع وراهم، وانت هتستنى هنا عشان لو احتجتك"
"تحت أمرك يا باشا، صحيح هو هرب ازاي؟"
"الكلب ابن الكلب ده، حقن حاجة في دراع زميله في الزنزانة خلاه يغمى عليه، وبعدين سيح حديد الشباك وطلع" بففففت، "ايه القرف ده! ايه القرف اللي انت جايبه ده!"
"ماله يا باشا الشاي؟ بارد؟"
"دانت اللي بارد، الشاي مفهوش سكر خالص!"
"معلش ياباشا انا حاطط معلقة ونص، انت بتشرب كام معلقة!"
"تلاتة يا طور، ثواني يا باشا اجيب لحضرتك سكر!"
"خد القرف ده ارميه، واعمل كوباية تانية بدل القرف اللي برد ده!"
"تحت امرك يا فندم"

كان ينقصني ذلك الغبي الآخر، كان حري به أن يسألني عما يجهل، وكاد أن ينسيني أن اتصل بالمعمل لأستعلم عن محتويات علبة السجائر تلك.
"ألو، ايه الأخبار وصلتوا لإيه!"
"اللي سمح بدخول علبة السجاير دي لازم تموته"
"ليه كان فيها ايه؟!"
"بلاوي زرقا، العلبة فيها آثار ثرمايت، وسيانيد بوتاسيوم، وفي ريحة مميزة لصابون، وآثار سايل متهيألي جاز، وفي جرح في جنب العلبة متهيألي ده أثر انه حط ولاعة جوه"
"استنى عليا، ايه السرمايت ونسانيس البوتاسيوم ده!"
"الثرمايت ده خليط من اكسيد الحديد والومنيوم واحيانا بيحطوا ماغنسيوم، ده بيشتعل بسرعة جدا، وبيطلع حرارة كفيلة تسيح جوانب من الشباك الحديد، اما سيانيد البوتاسيوم ده فمادة سامة، مش عارف بصراحة ممكن يستفيد بيها فإيه!"

فيدخل الغبي الذي نسيت أن أسأله عن اسمه وبيده كوب الشاي: "تفضل يا باشا".
مخاطبا الغبي: "حطه هنا واستنى عندك"، على الهاتف: "طب السم ده ممكن يفيده بإيه!"
"الحقيقة مش عارف، إلا لو كان بيخطط ينتحر، بس منين بيخطط يهرب وبيخطط

ينتحر في نفس الوقت".
"طيب دورلي على كل استخداماته، يمكن تطلع منهم بحاجة!"
"تمام يا باشا"
"حاجة تانية؟"
"في حاجة أخيرة سيادتك، احنا ملقيناش قلم للكتابة، ده غير ان الورقة الحبر ناشف عليها من فترة، يعني الكلام ده مكتوب من زمان، هو وصل امتى؟"
"امتمسك ووصل من يومين!"
"مش عارف، بس معتقدش ان الحبر هينشف كده خلال يومين، بس ده متوقف على نوع القلم"
"وحاجة زي دي أصلا هتفيدنا بإيه!!"
"يا باشا، الجدع ده كان عارف انه هيدخل، وكان عامل استعداداته كويس!"
صُدمت حين سمعت هذا الرد، فقمت بارتشاف القليل من الشاي الساخن، وكم سعدت حين وجدت له مذاقا رائعا، ثم أنهيت المكالمة، والتفت إلى العسكري الغبي.
"كويس انك عملت الشاي حلو المرة دي! قولتلي اسمك ايه؟"
"شريف يا باشا، وبصراحة، ليّ عندك طلب!"
"اسمك شريف؟ ابوك ملقاش اسم إلا ده! وكمان مبتديها من أولها طلبات!"
"معلش بقى يا باشا، بتقل عليك، بس انا عارف انك قدها وقود، انا عاوزك تمسك نفسك ومتحاولش ترجع اللي شربته على اللبس بتاعك، لأن كان نفسي آخر حاجة تدوقها في حياتك تكون مُرة، زي ما مررت حياة ناس كتير قبل كده. لكن بما انك لازم تشرب الشاي بسكر، اضطريت اعمله تاني!"
ذهلت حين سمعت الرد! "شريف مين!" ثم شعرت بألم شديد في بطني.
ثم سمعت صوته يقول في ثبات:"أنا سعيد إن تأثير سيانيد البوتاسيوم عالي، وإنه عديم الرائحة، وإن سيادتك انبسطت لما دوقته في كوباية الشاي بتاعتك، أنا عامل حسابي في أي لحظة ان ممكن يتقبض عليّ وواخد احتياطاتي كويس، ومكنتش هفكر أبدا، في إني أفضل متواجد في السجن، وأقتلك، وأهرب في عربيتك وفي لبسك كمان!"
لم أستطع الرد عليه، بدأت أفقد الإحساس بجسدي، ولكنني لا زلت أسمعه واراه بوضوح.
"كان نفسي كمان، اني اعملك تشكيلة كده على مزاجك، حاجة كده كوكتيل، صوديوم بينتوثال، على كلوريد بوتاسيوم، وطبعا مش هنسى حبة حلوين من بروميد

البانكورونيوم."

شعرت في داخلي أن هذا هو اليوم العالمي للكيمياء، فلم أفهم شيئا مما قال، لم استطع الرد عليه، وبدأت أشعر بالاضطراب في الرؤية قليلا، أهذه ستكون نهايتي؟

"طبعا زمانك مش فاهم أنا بقول إيه! دي حاجات زي نسانيس البوتاسيوم كده، سموم، بس ايه! من النوع المخصوص، للزباين الكبار أوي، زيك يا صلاح باشا!"

لم أستطع أن اشغل نفسي كثيرا بالتفكير كيف عرف اسمي، الألم يزداد وأشعر ببعض الاضطرابات في عضلة القلب.

"ألا صحيح هو أبوك ملقاش اسم يسميك بيه غير صلاح! ده انت حقك يسميك فساد! سجلك مليان قتل وتعذيب للمساجين يا فساد بيه! المشكلة الأكبر بقى انك اسمك صلاح الدين، يعني لا عندك صلاح، ولا عندك ريحة الدين! ده الدين برئ منك ومن أمثالك."

بدأت أفقد تركيزي تماما، لم استطع التركيز لفهم بقية الحوار، لكن التقطت أذناي القليل من الجمل الباقية.

"عشان متموتش جاهل، وانت مفكر نفسك أبو العريف، انتوا جيتوا عاوزين البلد، واحنا مش هنسيبهالكوا، مش هنخليكوا تحتلوا الأرض تحت أي مسمى، سواء حماية وطنية أو دولية، جه اليوم اللي ناخد فيه موقف، ولازم حد يبادر ويتحرك،"

عبارات وطنية رنانة، ولكن ممن؟ ممن لا يعرف شيئا عن الوطن أو الأرض! كم تمنيت لو أنه بقي لي القليل من القوة لضربه، ولكنها اللحظات الأخيرة بالنسبة إلي.

"سلام عليكم، أنصحك يا باشا تنطق الشهادتين، ده لو لسه فاكرهم".

الفصل الثاني:

التاجر

السهولة التي تنتشر فيها بعض الآراء وتصبح عامة،
تعود بشكل خاص إلى عجز معظم الناس،
عن تشكيل رأي خاص مستوحى من
تجاربهم الشخصية في الحكم والتعقل.

جوستاف لوبون، طبيب ومؤرخ فرنسي
1841 - 1931

يوم ممل آخر سأقضيه في دكانتي، ولا يقطع هذا الملل الذي أعانيه سوى التلفاز، وزيارات جورج لي. أما التلفاز فأجد متعة شديدة في متابعة الأخبار، خاصة بعد الحوادث الإرهابية الأخيرة في البلاد، وبعض التفجيرات التي شهدناها بأعيننا، ولكنني أعتقد أن هذا لن يطول، فقد صرح الجنرال الحاكم منذ يومين، بأنه سيمهل الجميع ثلاثة أيام للتوقف عن العمليات والتفجيرات الإرهابية والتظاهرات التي يقوم بها المتمردون، واليوم هو الثالث، لذا لا شك لدي أن الجميع سيتوقف، فالجنرال لا يمزح في مثل هذه الأمور.

أما جورج فهو فتى طيب، مهتم بدراسته ومتفوق، يجيء لزيارتي يوميا، ويقضي معي ما يقرب من الساعتين يوميا، نتطرق فيها إلى كافة موضوعات الحياة، وينقل لي أخبار الجامعة، فقد شهدت الجامعة في الآونة الأخيرة تظاهرات عنيفة وأحداث شغب كثيرة، ولا أدري ما الطائل منها، هؤلاء الشبان لا يفقهون شيئا في الحياة، يقومون للمناداة بما يسمونه الحرية، وينتفضون لما يسمونه الاستقلال، وليس لأحد منهم شغلة أو مشغلة، ولو أن لأحدهم صنعة أو عليه مسئوليات منزلية، لاتجه على الفور إلى عمله وترك هذه التظاهرات دون نقاش.

إن الجميع متضرر من هذه التظاهرات، فهي تعطل المصالح، فكيف لي أن أعمل وأنا غير آمن في دكانتي، ما أن يخرج هؤلاء المتمردون من الجامعة إلى الشارع، حتى تبدأ العمليات التخريبية، وتكسير المحلات، فتأتي قوات الأمن لفض التظاهرة واعتقالهم، فيقضي آبائهم اليوم في التوسط أو التذلل لدى أحد رجال الأمن لإخراجهم، وأنا أصدق ما أسمعه من اعترافات من بعضهم أثناء التحقيقات التي تذاع على شاشة التلفاز، إنهم يتقاضون أموالا طائلا من الخارج في محاولة لاستنزاف البلد وهدمها.

وأخيرا وصل جورج، بعد غياب يومين كاملين، حتى ظننت أنه قد أصابه مكروه، حادثني وعلى وجهه ألم وحزن: "إزيك يا عم ياسر؟"

"الحمد لله يا بني، مختفي فين من يومين؟"

"أبدا، في واحد صاحبي أوي مات."

"لا حول ولا قوة إلا بالله، البقية في حياتك، مين ده يابني ومات ازاي!"

"فاكر جوزيف؟ زميلي في الكلية. جه معايا هنا كذا مرة"

"الأسمراني شوية؟"

"عليك نور، أهو جوزيف ده اتقتل"

"اتقتل! ليه وازاي؟!"

“مش عارف، هو كان خارج من الكنيسة، المفروض انه كان مسافر شوية، بس اتضرب عليه نار قبل ما يركب العربية"
“لا حول ولا قوة إلا بالله، ومعرفتوش مين اللي عمل العملة المهببة دي؟"
“والله أدينا بنحقق، بس جوزيف كان ماشي واحد مسلم اسمه شريف الفترة اللي فاتت، نفسي ألاقيه يمكن يكون عارف حاجة"
“خلي بالك يابني ليكون من الجماعة إياهم!”
“انا سألت جوزيف وقالي انه حد محترم. لكن انا مش عارف اختفى فين"
ثم التفتنا إلى التلفاز لنسمع ما ستقوله المذيعة الشقراء، أعلم أنها سمجة وصوتها مزعج، ولكنها جيدة وذات معلومات مؤكدة؛ حتى أنها أذاعت يوما ما خبرا قبل أن يحدث، وهنا علمت أن بينها وبين الله شئ.
“أعزائي المشاهدين، بيان للجنرال بعد قليل بشأن المهلة التي أعلن عنها لتوقف التمردات التي استشرت في كافة ربوع البلاد، وبأكد على حضراتكم -مشاهدينا- إن أي حد تقع في إيده معلومة عن مظاهرة أو عملية يا ريت يبلغنا بيها، اتصل على رقم ...”
التفتُ إلى جورج: “يا أخي هو العيال دي مش ناوية تبطل تظاهر بقى! مش كفاية لحد كده قطع أرزاق، دنا بقيت بقفل المحل بدري بسببهم، مش ضامن حياتي لو فضلت قاعد"
جورج -ضاحكا-: “أهو يا سيدي عندنا مظاهرة النهاردة!”
“مظاهرة إيه! اوعى تكون انضميت ليهم!”
“أبدا والله، بس احنا بقالنا يومين على قتل جوزيف ومحدش من الأمن اتحرك عشان يجيب حقه، فقولنا نعمل مظاهرة للتنديد بالتنفيض اللي هما فيه ده، ولا عشان احنا مش زيهم فمعتبريننا كائنات حقيرة ونموت في ستين داهية عادي!”
“محدش قال كده يابني، بس مالوش لازمة المظاهرة دي يعني"
“صدقني محدش هيتحرك إلا لما يلاقوا ضغط شعبي!”
“ضغط شعبي! دا انتوا تلاقيكوا تلاتين واحد ولا حاجة!”
ثم دخل إلينا رجل غريب، لا يبدو من هيئته أنه طالب في الجامعة، فظننته أحد أفراد الأمن، خاصة أنه يركب سيارة فارهة عليها شعار قوات الأمن، فهمست إلى جورج أن يصمت كيلا يصيبه مكروه منه.
الغريب: “السلام عليكم.”
فرددت عليه: “وعليكم السلام، اؤمرني يابني!”

الغريب: "الأمر لله وحده يا حاج، بقولك متعرفش واحد اسـمه جـورج! بيعـدي عليـك هنا على طول". قالها وهو ينظر في خبث إلى جورج الذي بدا عليه الارتباك، فأجبته على الفور.

"والله يابني معداش عليا بقالي يومين!"

"خير يا حاج، متعرفش جراله حاجة؟"

"أبدا والله يابني، المفروض انا اللي اسألك!"

"طيب، انت مستنيه دلوقتي؟"

"والله يابني انا مش عارف إذا كان جاي ولا لأ!"

"طيب تسمحلي أستناه معاك. جايز يجي."

"العلم عند الله."

ثم التفت الغريب إلى جورج: "معلش معطلكوا."

جورج: "ولا يهمك."

الغريب مخاطبني: "معلش يا حاج، مفيش عندك بوتاجاز هنا نعمل عليه شاي، وبـالمرة أسيبكم لوحدكم تكلموا كلامكوا."

"تعالى من الباب ده كده، ادخـل هتلاقـي بوتاجـاز صـغير ع ايـدك اليمين، وبـراد كمان جنبه، وجنبهم الشاي والسكر"

"الف شكر يا حاج."

ودخل إلى الغرفة وأغلق الباب خلفه، فقلت لجورج: "الحق نفسك يابني وامشي، وابعـد عن الطريق اللي انت ماشي فيه ده. الحكومة لو عرفت هتروح في الرجلين، وما هينوبـك إلا العذاب."

جورج: ششششش، "وطي صوتك، انت عاوز تعرفه إنه أنا!"

"معلش يابني، م الخوف عليك والله".

جورج: "ايه الريحة دي؟ انت حاطط برفان صابون يا عم ياسر!"

"هو ده وقته يابني!"

"في ريحة صابون زادت أوي"

ثم خرج الغريب من الغرفة: "معلش هقطع كلامكم سوا، مفيش أخبار لسه عن جـورج يا حاج!"

"لسه يابني والله"

"طيب انا هفضل قاعد جوه لحد ما تخلصوا كلامكم."

“خد راحتك يابني!”
وعاد مرة أخرى إلى الداخل، ثم دخل إلينا فتى آخر، أعرفه جيدا، هو صديق جورج، ولكنني لا أذكر اسمه.
الفتى: “جورج، إحنا جهزنا كل حاجة، بس الناس خايفين من الخروج بره.”
جورج: “اسكت دلوقتي مش وقتك خالص.”
خرج الغريب مسرعا من الغرفة: “انا كنت عارف إنه انت، ليه بتنكر!”
وقفنا جميعا مذهولين، ولكن جورج ركض مبتعدا وهو يقول: “انا مليش دعوة بحاجة”. ركض الغريب خلفه مسرعا، ثم انزلق إلى الأرض ليعرقله كما نشاهد لاعبي كرة القدم يفعلونها بالتلفاز، فسقط جورج على وجهه.
أوقفه الغريب مرة أخرى، وشرع يزيل الأتربة عن ملابسه وهو يقول: “أنا مش عارف انت خايف من إيه. أحب أعرفك بنفسي، أنا شريف، صاحب جوزيف!”
جورج: “انت عرفت منين اني هنا! وعاوز مني إيه!”
“جوزيف كان بيحكيلي عنك على طول، وعاوزك تساعدني!”
“اساعدك في إيه..”
“اساعدك في ايه ده يطول شرحه، لكن قل لي، ايه اللي جهز والناس خايفة من إيه!”
“احنا عاملين مظاهرة النهاردة عشان جوزيف، والناس خايفة تخرج بره الجامعة!”
“وانتوا ناويين تخرجوا ليه؟!”
“مش عارف، بس المظاهرات بتخرج على طول!”
“مش معنى ان المظاهرات بتخرج على طول، إن انت كمان تخرج، مين اللي هيقود المظاهرة دي"
“أنا..”
“إنت! ازاي وانت معندكش خبرة..” ثم التفت إلى الفتى الآخر:”اسمك إيه!”
الفتى: “أنا مينا.”
شريف: “مينا، انت اللي هتقود الهتاف في المظاهرة دي، لف الجامعة كلها لكن متطلعش بره"، ثم عاود الالتفات إلى جورج: “وانت ليك مهمة تانية عندي..”
ثم التفت إليّ: “الشاي ع النار يا حاج، زمانه غلى".
فقمت أدخل إلى الغرفة لإحضاره، ولكنني لاحظت أن شريف هذا لم يقم بإشعال النار حتى، فوقفت خلف الباب محاولا أن أسمع ما يقولون بالخارج.
فسمعت صوت أنثوي رقيق يتحدث بكلام لم أفهمه، ثم سمعت صوت جورج وهو

يقول: "شريف أحب أعرفك على يوستينا، صديقة جوزيف. يوستينا، أحـب أعرفـك على شريف، صديق جوزيف".
ثم صوت الفتاة وشريف وكلاهما يقولان في آن واحد: "تشرفنا".

الفصل الرابع:

الطالب

في فرق بين نقطة ندى ونقطة دموع
في حد بالصمت اهتدى زي الجموع
والحر هو اللي ابتدى برفض الخضوع
ده الحلــم أول مرحلــة للإنتصـــــار

من أغنية مكلمين، 2013
لعاصم إمام، مطرب مصري

انطلقت كما طلب مني شريف مباشرة لقيادة التظاهرة، بعد أن أعطاني تعليمات واضحة لما يجب عليّ فعله، أهمها أن لا أحاول الخروج من الحرم الجامعي، وأن أحاول إقناع المشاركين بأن نحولها إلى مسيرة صامتة، ونتوقف بين الحين والآخر لنضرب بأرجلنا الأرض ونقوم برفع اللافتات عاليا. في محاولة سلمية للتعبير عن الرأي.

أخبرني شريف أيضا عن المندسين، الذين يدسهم الإحتلال بيننا لإيجاد الحجج الكافية لفض التظاهرة والقبض على أعضائها. هذه المرة لن نسمح بأفعال مثل هذه، الأمر يتطلب بعض الأفراد الثقات لعمل إطار خارجي يحيط بالمسيرة كيلا يدخل أحد الأشخاص المخربين المندسين إليها.

وما أن وصلت حتى وجدت الناس قد استشاطوا غضبا، حين وصل بعضهم أخبار من الخارج عن نية قوات الاحتلال لدخول الحرم الجامعي، وفض المسيرة بالقوة، فقمت بطمأنتهم، بأنه لدينا من الأساليب الكافية لإنهاء هذه المشكلة، وأننا على علم كامل بأنه قد تم إصدار قانون يجرم التظاهرات والمسيرات، السلمية منها والغير سلمية، لما فيها من تعطيل للمصالح، وغيره من الإدعاءات التي لن تحقق مع مسيرتنا اليوم، شعرت بالقلق، وكأنها النهاية.

بدأت المسيرة، وما هي إلا دقائق حتى ورد إلى اتصال هاتفي:

"ألو.."

"أيوة يا مينا"

"مين معايا؟"

"أنا شريف، إيه الأخبار عندك؟"

"مفيش أخبار، احنا بدأنا من شوية أهو، ووصلتلنا أخبار إنهم عاوزين يهجموا علينا"

"متخافش. أنا عامل حسابي كويس، المهم انتوا لازم تحافظوا على المسافات اللي بينكم وبين البوابات، متخليش حد يقرب من البوابات عشان لو في مخربين مينتهزوش الفرصة ويشوهوا صورتكم".

"والتليفزيون أخباره إيه!"

"انا خليت يوستينا تروح لمذيعة في قناة مشهورة، هتبلغها إن الشباب في الجامعة بيتحدوا القانون وخرجوا، ومفيش معاهم أي عمليات تخريب من أي نوع."

"شريف، انا ملحقتش اتعرف عليك بشكل كافي، ومعنديش سبب أثق فيك، إلا إن جوزيف كان بيثق فيك."

"متقلقش، انا معاك مش ضدك، ربنا هيستر ان شاء الله"

لم ألحظ أنني قد انحرفت قليلا عن المسار وابتعدت عن المسيرة، وأنهم قد اتخذوا طريقا جانبيا غير المقرر اتخاذه، بدأ الشك يساورني، هل حدث هذا عن عمد، أم أن هذا مجرد سهو منهم، فانطلقت عائدا إليهم، ولكنني فوجئت بأن الأعداد قد تزايدت إلى حد كبير، وبدأوا بالهتاف منددين بمقتل جوزيف، ومطالبين بالقصاص من قتلته.

حاولت أن أوقفهم، ولكن بلا جدوى، تزايد الأعداد جعل الوصول إلى مقدمة المسيرة صعبا، وارتفاع الأصوات جعل النداء أصعب، كدت أفقد الأمل، فلا أعلم ما الذي حدث على وجه التحديد، فالمظاهرة الآن تنادي بهتافات معادية للحكومة وللنظام، وتتجه للخروج من الحرم الجامعي، حقا إنها النهاية.

صرخت فيهم: "يا جماعة!! استنوا!!، مش ده اللي اتفقنا عليه!! استنوا!!"، ولكن انطبق علي القول، قد أسمعت إذ ناديت حيا، ولا حياة لمن تنادي، هكذا كانوا، رأيت وجوها غير الوجوه، وجدت أناسا غير الأناس، وكأنني عدت إلى تظاهرة أخرى، وما أن اقتربنا من البوابة، حتى اندفع الجميع إلى الخارج يركضون، وهم يطلقون صيحات عالية، وكأنهم يخرجون للحرب.صرخت فيهم ثانية ليتوقفوا، ولكن لا طائل من الصراخ، إنهم الآن بالفعل خارج أسوار الجامعة.

وكعادة أي تظاهرة تنال قسطا وفيرا من المندسين والمخربين، تبدأ الأعمال التخريبية فور الخروج من البوابة، فتحركت قوات الأمن على الفور لفض التظاهرة وإيقاف أعمال الشغب، توقفت مكاني، لم أشأ أن أخرج من الجامعة، ثم وردني اتصال هاتفي آخر.

"ألو!"

"عاجبك كده، آدي آخرة الشغب يا سيدي! متفكرش ان وقوفك جوه السور هيمنعنا اننا نمسكك بتهمة التحريض على التظاهر وتخريب المنشآت!"

"مين معايا!"

"مش لازم تعرف أنا مين، المهم اني هحبسك! وهعلمك تبطل تخريب في البلد!"

أغلقت المكالمة سريعا، كنت قلقا، قلقا جدا، فقمت بالاتصال بجورج.

"جورج!"

"مينا إيه اللي بيحصل ده! انت قولت للناس إيه!"

"انا قولتلهم زي ما اتفقنا، بس معرفش ايه اللي حصل!"

"متعرفش ازاي، الناس خرجت، وبتولع الدنيا بره!"

“انا مش عارف أي حاجة، شريف ده هيودينا ورا الشمس! انا مش عارف ازاي تثق في واحد مسلم!”
“ايه واحد مسلم دي بس! هو ده وقته! عاوزين نشوف حل للمشكلة دي دلوقتي!”
“انا مش عارف أعمل إيه! اسأل صاحبك شريف اللي هيودينا في داهية!”
“شريف من أول ما الناس خرجوا من الجامعة وهو فص ملح وداب! انا مش عارف راح فين!
“طيب يوستينا عندك؟"
“يوستينا لسه مجتش من مكتب القناة!”
“هو إيه اللي حصل النهاردة لده كله!”
“مش عارف، طب اقفل دلوقتي وهكلمك بعدين!”
“طب انت بتعمل ايه!”
“انا هعمل اللي شريف قاللي عليه.”
“تاني شريف؟! هو قالك تعمل إيه؟"
“مش هينفع في التيليفون، بس اتفرج ع اللي هيحصل دلوقتي.”

أطلقت عيني في المكان بحثا عن جورج، أود أن أشاهد ما الذي سيفعله، فلمحته يقف بجوار العساكر في صفوف الأمن يتحدث إليهم، ثم قام بإعطائهم بعض السجائر للتدخين، ولكني لاحظت أنه لم يخرج ثقاب لإشعال السجائر، فبدأوا يسألون بعضهم البعض، ولم يجدوا، فاشار لهم بالانتظار ريثما يحضر.

الأحداث لا تزال مشتعلة، والاشتباكات تدور في الميدان خارج البوابة، المتظاهرين والأمن يتبادلون تراشق الحجارة، ومنتظرين أن يصدر أمر للأمن بالقبض عليهم أو ردعهم، هذا ليس ما خططنا له، هذا ليس ما أردته! لقد أفسد المدعو شريف هذا كل شيء.

خرجت إلى الشارع أخاطبهم أن يعودوا إلى الجامعة، فبدأ الخائفون أمثالي للتحرك صوب الجامعة مرة أخرى، ولكننا فوجئنا بأنه قد تم إغلاق الجامعة في وجوهنا، لمنعنا من الدخول مرة أخرى، فتجمهرنا أمام البوابة.

لقد قالها شريف لي اليوم: “لن ترى نصر اليوم، فهذا يومك الأول في المعركة، ولكن بعد عدة معارك، ستكون مستعدا تماما لإحراز نصر، وإحداث ضرر"، والآن كل ما أخشاه أن تنتهي معاركي جميعها خلال معركتي الأولى. أنا لا أعلم حقا كيف يسمونها معارك، ولكنني أعتقد أن شريف يشارك المتمردون حلمهم في إخراج المحتلين من الأرض،

أعلم تماما أنهم قد أفسدوا في الأرض وطغوا وبغوا، وعاملونا وكأننا كائنات أدنى منهم، ولكنني كما الجميع، أخشى القتال، وهنا خطر ببالي فكرة، لِمَ لا أتصل بشريف كما اتصل بي هو، أخرجت هاتفي واتصلت به، فلم يتأخر في الرد عليّ، وأجاب سريعا:

"إنت إيه اللي خرجك بره!"

"الناس هي اللي خرجت لوحدها!"

"ماليش دعوة بالناس، أنا اقصدك انت، انت كنت جوه، خرجت ليه!"

"كنت عاوز ارجعهم الجامعة!"

"مش وقت عتاب، دلوقتي، ابدأ قول للناس يزقوا البوابة، اكسروها، وادخلوا جوه، وحاولوا تعتصموا، لو خرجتوا هتتقتلوا."

"نعتصم؟!"

"أيوة تعتصموا، يعني تباتوا في الجامعة!"

"طب وهنخرج ازاي!"

"بكره لو الدراسة استمرت في الجامعة، غفلوا الحرس واخرجوا وسط الطلاب العاديين!"

"احنا هنعيش لبكره!"

"ان شاء الله هنعيش لبكره، ادخلوا دلوقتي وأنا هدخل وراك بالظبط، بس لازم أطمن على جورج ويوستينا. سلام دلوقتي."

حينما تم إغلاق الهاتف، ناديت في الناس بقوة "اكسروا الباب!"، فاندفع الجميع وقاموا بهز البوابة حتى خُلعت. وانطلقنا للداخل حتى وصلنا إلى نقطة بعيدة نوعا ما، فأخبرت الناس أن يبقوا هنا ولا يتحركوا، وأعلنت أننا سنبيت هنا الليلة، ونخرج في الغد مع عموم الطلاب.

نظرت عن بعد إلى البوابة التي تم خلعها، وإلى المدرعات التي تدخل إلى الحرم الجامعي قادمة إلينا، شعرت أنه لا مفر، الجندي الواقف أعلى المدرعة يدخن السجائر ينظر إلينا بثقة وهو يحمل بندقيته، هو يثق تماما بأن رصاصة واحدة منه كفيلة بإنهاء حياة أحدنا. ولكنه يدخن السجائر! ليتها أحد ألاعيب شريف، ثم...

سمعت الصوت، وبدا لي صوت انفجار المدرعة في الصفوف الأولى وكأنها أصوات طبول مرحة راقصة، تزف إلينا خبر نصر سعيد!

الفصل الخامس:

البديل

الاستبداد يقلب الحقائق في الأذهان،
فيسوق الناس إلى إعتقاد أن
طالب الحق فاجر،
وتارك حقه مُطيع،
والمشتكي المتظلم مُفسد.

من كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد
لعبد الرحمن الكواكبي، أحد رواد النهضة العربية،
1855 - 1902

لا أدري كيف حدث هذا. كانت الأمور تسير على ما يرام كما خططنا، قامت عناصرنا المندسة بأعمال تخريبية كافية للتحرك، وانتظرنا انسحاب المخربين لنقبض على المتظاهرين. لا أدري مَن جوزيف هذا ليتظاهروا من أجله، ولكنني على يقين تام بأن لديهم قيادة على مستوى عال من التدريب على التفجيرات، لا أحد يفجر مدرعة بهذه البساطة.

كيف تخرج الأحداث عن السياق الذي كتبه مؤلف بارع مثلي! لقد خططت لعمليات أعقد من هذه مع تظاهرات المتمردين العتاة، وأتممتها بنجاح منقطع النظير، فكيف يحدث هذا!

سمعت صوت أحد الجنود يقول من خلفي، "باشا، مش دي السيجارة اللي انت اديتهالي؟ السيجارة دي فيها إيه!"، فالتفت مسرعا لأنظر إلى من يتحدث، فوجدته يتحدث مع أحد الشباب الذين ظلوا بجانبنا طوال فترة الأحداث، فناديت على الجندي: "وريني السيجارة دي كده!"، فأعطاني إياها، تفحصتها فوجدتها عادية تماما، لم أجد بها أثر لتبديل التبغ بشئ آخر، ووجدت الفتى يجيب على الجندي، بأنها سجائر عادية تماما، قام بشرائها من أحد الدكانات صباحا.

لا تزال هناك حلقة مفقودة، مينا على الجانب الآخر فتى صغير لا يعرف شيئا عن التظاهر أو التفجيرات، ولكن ماذا عن جورج، أنا لا أعرف كيف يبدو، ولكنني لدي رقم الهاتف الخاص به، سأحاول تهديده مرة أخرى، فأخرجت هاتفي النقال، واتصلت به.

سمعت صوت رنين الهاتف بجواري من نفس الفتى صاحب السجائر، ترى؟ أيكون هو!، قمت بإغلاق المكالمة لأختبر إن كان هو أم لا، ولكنه كان ينظر إلي! فرفع هاتفه ووضعه على أذنه وبدأ يرد وهو يسير مبتعدا كيلا أسمعه. لدي حدس قوي يخبرني بأنه هو. هذا الفتى هو جورج، قمت بالاتصال مرة أخرى بالرقم، فإذ بها مفاجأة أكثر من سارّة، لقد رن الهاتف وهو على أذن جورج. إنه هو!

"امسكـــوه!"، هكذا صرخت للجميع حين وجدته يركض مبتعدا، وانطلقنا جميعا خلفه للحاق به. لم يكن سريعا أبدا، ولكن توقفت سيارة أمامه، فركب فيها، وانطلقت إلى داخل الجامعة، وقائد السيارة يلقي قنابل دخان إلى الطريق، فلم نعد نرى شيئا، وغابت السيارة عن الأنظار.

خطر ببالي أن أتصل بجورج مرة أخرى، فلم يجب، فاتصلت بمينا، فإذا به يرد، ولكن بنبرة صوت أقوى مما كانت عليه،

"إزيك النهاردة يا باشا!"
"أنا سبق وحذرتك يا مينا!"
"أنا مبتحذرش، ومبتهددش، احنا بنشتغل بس. وأديك شوفت بنفسك!"
"احنا بنشتغل؟ وانتوا مين بقى!"
"احنا اللي هنخليك تلاقي نفس المصير، لو فكرت تهاجمنا تاني، المدرعة دي الأولى، بس مش الأخيرة."
"بقيتوا متمردين بقى! ضحكوا عليكوا وبتضيعوا قضية صاحبكوا!"
"متقلقش على صاحبنا، احنا هنعرف نجيب حقه، وهنعرف نجيبه كويس أوي!"
"الله الله! بقى كده! جبت منين الثقة دي!"
"في واحد هنا عاوز يوصلك رسالة، اسمه شريف، بيقولك انت كده بتلعب مع الكبار. الكبار أوي كمان". ثم أغلق الهاتف.

لا أدري مَن شريف هذا أيضا! ولا مِن أين تأت لنا كل هذه المصائب! كتبت رقم الجنرال الحاكم بالمنطقة، واتصلت به، فهو الوحيد الذي سيمنحني تصريحا بما أريد الآن، سمعت الصوت على الطرف الآخر.
"ألو، إيه الأخبار عندك!"
"أخبار مش كويسة أبدا، فجرولنا مدرعة"
"إيه الجديد؟ ما اتفجر كتير قبل كده!"
"المرة دي مختلفة، دول شوية عيال صيع من الجامعة ميعرفوش حاجة، والطريقة اللي المدرعة انفجرت بيها غريبة."
"كلهم بيكونوا شوية عيال صيع من الجامعة ميعرفوش حاجة، انت بتتصل عاوز مني إيه دلوقتي!"
"بطلب من سيادتك الإذن بدخول الجامعة، وأجيب العيال دي."
"مش هتعرف، وبعدين الجامعة خارج حدود صلاحياتي."
"يا جنرال مفيش حاجة خارج حدود صلاحياتك والبلد كلها عارفة، ممكن بمكالمة تيلفون تخليني أدخل!"
"وانت مفيش حاجة هتمنعك، والبلد كلها عارفة، ومش مستني رأيي عشان تدخل، بتتصل عاوز إيه، نشأت، أنا عارفك كويس"
"انا لو دخلت أجيب العيال دي، في ناس هتموت"
"وانت يعني بيهمك!"

"طيب خليني صريح. أنا عاوز أموت العيال دي."
"وانا موافق!"
"بجد؟!"
"بشرط واحد!"
"دلني عليه."
"لو دخلت جوه، يبقى كله يموت، وتخفي الجثث، وهنخلي الإعلام يقول انهم هربوا بمساعدة المتمردين ومعرفناش نوصلهم."
"كلهم؟!"
"أيوة كلهم، مش عاوز شاهد واحد إن في مذبحة حصلت جوه!"
"أي أوامر تانية من سيادتك؟!"
"آه، متنساش تبقى تنده في الميكروفونات لو حد عاوز يطلع من جوه، عشان الجماعة بتوع التيلفزيون يصوروا ويقولوا إننا عندنا قدر كبير من الإنسانية، بس هما اللي بيتعاملوا مع المتمردين."
"تحت أمر سيادتك!"
"خلص وكلمني إديني التمام."
"تحت أمرك."

تحمست كثيرا لإنهاء الأمر، فطلبت بعض المروحيات للتصوير، وأن يكون على متنها أفراد قناصة؛ لأنها تسبب توتر شديد في صفوفهم، كما أن بها يمكن فحص وجود أسلحة من عدمة، وتحديد درجة الخطورة، واقتناص العناصر الخطرة.

طلبت من الجنود الاستعداد مرة أخرى للدخول، ثم طلبت من بعض السيارات الإقتراب لتوجيه نداءات تطالبهم بالخروج السلمي من الجامعة، ولن يصيبهم مكروه، لم يستجب أحدا، وددت لو أنه استجاب أحد لهذه النداءات، لأعتقله وأحقق معه عما حدث، ولكن أحدا لم يستجب.

بلغت الجنود بخطة الاقتحام، كانت بسيطة، لا قبض، لا اعتقالات، قتل فقط، ثم تجميع للجثث في مكان واحد للتخلص منها فيما بعد. ثم صعدت لأحدى المروحيات لأتمكن من متابعة المشهد من الخارج، وإعطاء التعليمات اللازمة.

خلال الفحص الأولي، استطعنا تقدير الأعداد المتواجدة بالداخل بحوالي ثلثمائة شخص، بينهم فتيات، ولا يوجد أطفال، لا يوجد أسلحة، سوى بعض الكرات المصنوعة من ورق الألومنيوم، وعلى ما يبدو أنها قنابل دخانية، وبعض الزجاجات، وعبوتين

كبيرتين من زيت المحركات، والبنزين.

جميعها أشياء بدائية الصنع، لا يمكنها أن تحدث ضررا أمام الرصاص، فأشرت للجنود بالتقدم، وطلبت من القناصة اقتناص جورج والمجموعة التي تحيط به، وأعطيتهم وصفا دقيقا له، فلم يراه أحد. استغرق الأمر عشرة دقائق حتى وصلت القوات بالقرب من مكان تواجد المتظاهرين، إنها اللحظات الأخيرة لهم الآن. ثم سمعت أصوات إطلاق النار من قبل جنودنا.

بدأ الدخان ينتشر في المكان، دخان كثيف، لا بد أن المتظاهرون قاموا بإشعال كمية كبيرة من القنابل الآن، لم نعد نميز أي شئ، ولكنني سمعت عبر الراديو أحد قادة المروحيات يشكو أن مروحيته عالقة بشئ ما، فلا يستطيع سوى أن يدور حول المبنى.

طلبت من قائد مروحيتي الاقتراب منها، فاقترب بشكل يسمح بالرؤية ورفض ان يقترب أكثر بسبب المخاطر، فحاولت عن بعد تمييز ما الذي تم ربطه بالطائرة، فلم أميز سوى كونه حبل غليظ، فطلبت مرة أخرى من قائد المروحية الانخفاض، فانخفض قليلا، حتى سمعت صوت شئ يرتطم بأسفل مروحيتي، وما أن أخرجت رأسي لأنظر ما هو، حتى لمحت جورج وآخرين على أحد الأسطح القريبة، فهتفت في القائد: "اطلع فوق بسرعة، بسرعة!"

يبدو أن الطائرة علقت، لقد تم ربطها بسهم من بندقية صيد بحبل معدني سميك كالذي يستخدم مع المصاعد، حاول قائد الطائرة الابتعاد فلم يفلح، قررت أن أطلق النار عليهم وأتخلص منهم، ولكنني فوجئت بهم يشيرون إليّ مرحبين، ثم أشعلوا إحدى قنابل الدخان، فلم أعد أستطع تمييز مكان أولئك الفجرة، أهي نهايتي أم نهايتهم، بالتأكيد هي نهايتهم. ولكن.. ما الذي يحدث، إن المروحية تهبط للأسفل بسرعة، هتفت بالقائد:

"في إيه اللي بيحصل!"

"الحبل اللي ربطوه ده!"

"ماله؟!"

"بيشدنا لتحت!"

...

الفصل السادس:

المذيع

إن الإعلام هو أقوى كيان على وجه الأرض،
فهو من لديه القدرة على تحويل
البرئ لمذنب،
والمذنب لبرئ.
وسر هذه القوة هو
أنه يتحكم بعقول الجماهير.

الحاج مالك الشباز،
داعية إسلامي ومدافع عن حقوق الإنسان،
والمعروف إعلاميا بإسم "مالكوم اكس".
1925 – 1965

هاتفي يرن، ولا يظهر رقم الهاتف، لا يظهر سوى رقم خاص، فأشرت إلى الفتاة التي تقف أمامي منذ ساعة محاولة إقناعي بالتوجه للجامعة لتصوير تظاهرة سلمية أن تلتزم الصمت، ريثما أنهي الحديث في هذه المكالمة الطارئة.

"ألو.."

"أيوة يا غبي! أنا الجنرال. أنت قاعد عندك والجامعة مولعة!"

"أبدا يا جنرال، انا كنت لسه هنزل اصور أهو، بيقولوا المظاهرة بتاع النهاردة سلمية ومخرجتش بره الجامعة!"

"الله يحرقك غبي من يومك! المظاهرة ولعت في الجامعة وفجرت مدرعة! انت جاتلك الأخبار دي منين؟"

"بنت جاتلي عاوزاني انزل أصور."

"ولسه عندك؟"

"آيوة يا جنرال."

"طيب خلي الأمن يجي ياخدها من عندك حالا! ويسلمها في أسرع وقت! مفهوم؟"

"تحت أمرك يا فندم."

"حاجة كمان، انا عاوزك وانت بتصور تطلع ان دول كلهم مع المتمردين، وانهم هربوا ومعرفناش نمسك حد منهم!"

"تحت أمرك يا فندم، حاجة كمان؟"

"انزل من عندك على طول، وخلي الأمن يتصرف معاها، ومتحسسهاش ان في حاجة غريبة عشان متهربش!"

"تحت أمرك يا فندم!"

وأغلقت الهاتف، ثم نظرت إليها: "المظاهرة هناك عاملة شغل عالي، الناس كلها بتشيد بيها أهو!"

لم تجب، فضغطت زر الجرس، وناديت: "اندهيلي على محمود بسرعة!"، ثم التفت إلى الفتاة: "اتفضلي اقعدي، محمود المصور هيوصل حالا". فأجابت: "طب ما نقابله تحت ونمشي على طول!"

ولم تكد تكمل جملتها، حتى دخل شاب ضخم الجثة مفتول العضلات، كالذي نشاهدهم في أفلام السينما، فقلت له: "أقبض على البنت دي، وروح سلمها في أقرب قسم حالا. البنت دي تبع المظاهرة اللي في الجامعة النهاردة، دي من المتمردين!"

فصرخت في وجهي: "متمردين إيه! إحنا مسيحيين!"

فابتسمت لها وقلت: "طب ما انا عارف، مفيش متمرد بالغباء ده!" ثم التفت إلى محمود وقلت له بلهجة آمرة: "اقبض عليها، واوعى تفلت منك!"
وخرجت من الغرفة مسرعًا، لأجد الفريق في انتظاري بالخارج، والمصور يخاطبني بخوف: "الجنرال كلمني، فجيت استعجلك!"
أجبته: "حكالك عن حاجة؟"
رد عليّ: "كل حاجة، ولحسن الحظ الفريق جاهز!"
فقلت له: "هيا بنا".

وركبنا السيارات منطلقين إلى الجامعة، وما أن وصلنا حتى شاهدت ما لم أشاهده في حياتي من قبل! هؤلاء المتظاهرون يطلقون أسهم من بنادق كالتي تستخدم في صيد القروش والحيتان، وتلك الأسهم متصلة بحبال سميكة لا تقوى الطائرة على قطعها.

إن هؤلاء هم المتمردون حقا، بل هم أسوأ منهم، المتمردون يكتفون بإلقاء زجاجات المولوتوف على المركبات والطائرات، ولكن هذه تقنيات أكثر تطورا، كيف وصلوا إلى هذه البنادق!

ولكن على جانب آخر من الجامعة، لم أجد هذه القوة في المتمردين المتواجدين على الأرض بساحة الجامعة، إنهم مختبئون خلف السيارات، والمباني، ولا يستطيعون سوى إطلاق قنابل دخانية على قوات الأمن، التي تحصد رصاصهم أرواح المتمردين حصدا.

المصور:"إزاي هصور ده! إزاي هنصور هنا! ريحة الدم غلبت ريحة البارود، وصوت الرصاص، وحمرت بياض الدخان."
أجبته: "بقولك إيه! إحنا مالناش دعوة! عاوزين ناكل عيش!"، ثم أشرت له إلى ساحة لا يوجد بها شئ سوى الغبار الكثيف، وقلت له: "صورني هنا".
فأشار إلى سيارة البث لبدء الإشارة، ثم وقفت مواجها للكاميرا منتظرا بدء الإشارة، وشاهدت أصابعه تعد، ثلاثة، اثنان، واحد.
"أنقل لكم الصورة الآن من جامعة العاصمة، قامت جماعة من المتمردين بتنظيم تظاهرة إرهابية اليوم، أسفرت عن تفجير إحدى مدرعات قوات الأمن، وأطلق المتمردون قنابل الدخان في كل مكان في محاولة منهم للهروب، ولكن لا تزال قوات الأمن تبحث عنهم لإلقاء القبض عليهم، وتؤكد أنهم لا يزالون.."
ولم أستطع أن اكمل العبارة، فقد تم إلقاء قنبلة دخانية أمامي، فلم أستطع سوى الركض

مبتعدا، شعرت بأيادي تحاول الإمساك بي، وأنا أكاد اختنق، ظننتهم أحد الزملاء من الفريق، ولكنني فوجئت بضربة قوية على رأسي، فقدت وعيي على إثرها.

وحينما استيقظت، وجدت نفسي في مكان مظلم، ورائحة دخان الحريق تملأ المكان، بدأت أتحسس الأرض من حولي، فوجدت بعض الأجسام البشرية بجواري، فأخرجت هاتفي سريعا لأنظر على ضوءه ما هي، فوجدت فريق التصوير والبث الخاص بي جميعه ملقى على الأرض فاقدي الوعي، والآن فهمت الأمر، لقد تم احتجازنا في إحدى القاعات بالجامعة.

حاولت الاتصال ببعض الأشخاص بالخارج، ولكن الشبكة معطلة، إنها لا تعمل، ثم بدأت أسمع صوت تفجيرات قريبة في المكان، وأصوات طائرات، ترى؟ هل سيقومون بقصف المكان؟ نظرت إلى الخارج من إحدى النوافذ الزجاجية، هذا صحيح، إنهم يقصفون المكان! ترى ما حاجتهم إلى قصفه!

تركت الفريق خلفي، وقفزت إلى تلك النافذة، ثم دفعت جسدي للخارج لأهرب من تلك القاعة، ولحسن حظي كانت القاعة بالدور الأرضي، فلم أصب بأذى، ولكن جسدي كان يرتعش خوفا من صوت الطائرات والقصف.

اندفعت أجري إلى الخارج، أبحث عن البوابات ومصادر الضوء، المكان تمت إنارته من نيران الحريق، والحرارة مرتفعة، وجسدي لم يعد يحتمل. نظرت للهاتف مرة أخرى، فوجدت أنني التقطت إشارة ضعيفة لشبكة الهاتف، ولكن لا بأس، كدت أقوم بالإتصال، لولا أن الهاتف سبقني ورن، رقم خاص آخر، لا بد أنه الجنرال.

"الحقني يا جنرال!"

"الحقك؟ دنا هموتك! ازاي ده يحصل؟ ازاي تدخل الجامعة من غير تأمين، ازاي تفضل واقف بعربية البث لوحدك؟!"

"ما أنا.."

"ما هو انت إيه؟ انت فين حاليا؟ اوعى تكون لسه في الجامعة! أنا إديت أوامر بالقصف، بعد البيان اللي اتذاع ده!"

"بيان إيه، انا بحاول اجري بره الجامعة أهو"

"الصوت بيخروش، مش سامعك كويس، لو انت لسه في الجامعة اهرب من عندك!"

"انا بحاول اهرب أهو، قولهم يوقفوا قصف"

"مش سامعك، صوتك بيقطع، ألو، انت لسه هنا.."

"أنا بجري أهو، قولهم بس يوقفوا لحد ما أهرب."
"مش ســ...، اهرب من ...، سامعـ.."
"ألو...!"
ووقفت أستجمع أنفاسي قليلا، وركنت ظهري إلى جدار أحد المباني، وأنا على مسافة قريبة من البوابة، لم يتبق إلا القليل، ولم أكد أنهض من مكاني، حتى سمعت صوت انفجار فوقي، فنظرت إلى الأعلى، فوجت الجدار يتفتت، وينهار عليّ..

الفصل السابع:

الشيخ

إن الإسلام يظلم بإسم الإسلام،
يظلمه علماء يخدمون السلطة،
وشبان عديمو الفقه،
وغوغاء حيارى.

محمد الغزالي – عالم ومفكر إسلامي مصري.
1996 - 1917

كعادتي اتجهت لصلاة الجمعة في مسجد العاصمة، وكلي شوق لأسمع خطبة اليوم من شيخنا الجليل إبراهيم، فهو عالم بأمور الدين، ومرح، ولطالما استفدت من دروسه وخطبه ومواعظه، ولكني أرى أنه له من الآراء السياسية ما هو غريب، وأتعجب كيف يكون ذلك الفقيه هو نفس الشخص صاحب هذه الآراء، تبدلت أحواله وآراءه السياسية مذ أصبح إماما لمسجد العاصمة، ولا أعلم لماذا تبدلت، أو كيف تبدلت.

جلست في انتظار الخطبة، حتى صعد الشيخ إبراهيم المنبر، وبدأ خطبته، التي فاجئني بها، فقد قال:

" يا جماعة المسلمين، يا جماعة المسلمين، إن علينا اليوم أن نصطف ونتكتل، ونقف كأمة واحدة، أمام هذه التصرفات الإرهابية، من جماعة المتمردين المتحدة مع النصارى، فقد شاهدتم بالأمس ما حدث بالجامعة، وكيف انضم المتمردون إلى صفوف المشاغبين من النصارى، وكيف أطلقوا صواريخهم تجاه طائراتنا، وعرباتنا، التي كانت تحاول إنقاذ الرهائن، وكيف استطاعوا خطف وقتل فريق أحد القنوات الفضائية، الذي حاول كشف كذبهم، ومحو زورهم.

وشاهدنا بأم أعيننا، البيان الذي أذاعوه، وألقوا فيه التهمة على أمننا الشريف، الذي يسعى جاهدا لفرض الأمن في الجامعات، حيث قال الكافر الفاجر مذيع البيان أن هذه فقط المرة الأولى، ولن تكون الأخيرة، وأنهم سيقبلون العون مِن كل مَن يبادر به، ويسعى لإنقاذ هذه البلاد من الغرق، وأنهم مرحبون بانضمام جماعة المتمردين إليهم، وسعيهم سويا لإجلاء المحتل عن بلدنا العزيز.

عن أي محتل يتحدثون؟! إن هؤلاء القوم الذين أتوا من الخارج؛ ما أتوا لنا إلا لأنهم يريدون لنا رفعة وتقدما، فسعوا لتطوير العلم، وتقوية دور الجامعة في إعداد العلماء. أهكذا يكون رد الجميل؟ أترد الجميل لمن يعطيك العلم بأن تفجر مركباته وتقتل أفراده؟ وتتعاون مع من قتله؟ أم ترد الجميل بإرهاق دولتك ماديا ومعنويا!

يا جماعة المسلمين، إن حربنا ضد الإرهاب ليست كأي حرب، فهذه المرة، العدو من الداخل وليس من الخارج. وهو أيضا غير معروف لنا، لذا فإنه حري بنا أن نقف صفا واحدا لنقاوم هذا العنف في الجامعات، الذي لا نعلم له سببا، ولا نعلم له هدف.

إن بعض الإرهابيين يتهمون زورا قيادات حكومتنا بأنهم محتلين، ومغتصبين للأرض، وللأسف، فإن بعضهم من المشايخ الكبار، وإنه ليس لهم علم بالسياسة ولا يجيدونها، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.

إني أرى لكم ما لا ترون، هؤلاء مأجورين ومدفوعين من قبل أعداء الدولة والوطن، ويقولون أن هذا باسم الإسلام! فكيف لا يعلمون بأنه لا يجوز الخروج عن الحاكم إلا في حالات مشددة، نبينها لكم لاحقا، في وقت آخر، ولكن ليس الآن، كيلا تسود الفتنة في المجتمع الإسلامي، أما الآن، فإن الخروج على الحاكم حرام! حرام! حرام!"

أنهى هذه الجملة الحماسية واشتعل الناس بالتصفيق والدعاء للشيخ بأن يفتح الله عليه، ولكنني لم أفهم كيف يمكن له أن يقول هذا؟ إن قيادات الحكومة المبجلة -كما يدعي الشيخ إبراهيم- قد أعلنت بأنه تم تأجيل صلاة العصر لمدة ساعتين كاملتين؛ حتى يتسنى للناس إنهاء ساعات العمل الإضافية، من أجل مستقبل أفضل للوطن.

ألا يذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي رواه ابن حبان، وحسنه الألباني: ليأتين على الناس زمان يكون عليكم أمراء سفهاء، يقدمون شرار الناس ويظهرون بخيارهم، ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فمن أدرك ذلك منكم، فلا يكونن عريفا ولا شرطيا ولا جابيا ولا خازنا. وأن هؤلاء الأمراء قد أخروا الصلاة عن مواضيعها، وإنا نراهم لا يصلون، ولا يؤمونا للصلاة، فلا أدري أنَسِيَ؟ أم أنه قد اختلط الأمر عليه. أخشى أن يكون الشيخ إبراهيم قد ضل الطريق بعد أعوام من خدمة الدين.

أعلم أنه لا يجوز الخروج في هذه الحالة عن الحكام ما أقاموا الصلاة، ولكن الشيخ يدعو الناس إلى تمجيد ذلك الحاكم، ومعاونته على قتل الأبرياء الذين يطلقون عليهم اسم المتمردين حتى لا يغضب العامة من ذلك، أما المتمردون الحقيقيون، فلا يصلون إليهم، ولا يستطيعون لهم سبيلا.

فقد قال الشيخ ابن تيمية في الفتاوى الكبرى: "ولا يحل للرجل أن يكون عونا على ظلم، فإن التعاون نوعان: الأول تعاون على البر والتقوى، من الجهاد وإقامة الحدود، واستيفاء الحقوق وإعطاء المستحقين، فهذا مما أمر الله به ورسوله، ومن أمسك عنه خشية أن يكون من أعوان الظلمة، فقد ترك فرضا على الأعيان، أو على الكفاية متوهما أنه متورع، وما أكثر ما يشتبه الجبن والفشل بالورع، إذ كل منهما كف وإمساك.

والثاني: التعاون على الإثم والعدوان، كالإعانة على دم معصوم أو أخذ مال معصوم أو ضرب من لا يستحق الضرب، ونحو ذلك، فهذا الذي حرمه الله ورسوله."

وإن الشيخ هكذا يعاون على ضرب من يستحق الضرب، ويعين على دم معصوم، وذلك تحت مسمى محاربة المتطرفين المتمردين.

لم أدر أنني قد سهوت من الخطبـة، في أشـياء جانبيـة، فلـم أسـمع مـا قـاله بعـد ذلـك، ولكنني سمعته يكمل كلامه.
"متخليـش حـد بتشـك فيـه يبـات في بيتـه، بلـغ عنـه، سـاعدنا نوفرلـك الأمـن، خـالفوا المتمردين وقصوا اللحى وأطلقوا الشوارب، متخليش نفسك شبههم عشان محدش يشـك فيك. هو إنت عايز ايه من الدنيا أصلا غير انك تجيب لقمتك وتنام مرتـاح، مالـك انـت والسياسة، سيبوا السياسة لناسها، ولا تنازعوا الأمر أهله."

لم أستطع أن أكمل سماع ما يقـول، فبـدأت أنظـر إلى وجـوه النـاس لأرى ردود أفعالهم، ولكنني وجدتهم ينظـرون إلى بعضـهم البعـض كـأنهم يشـكون ببعـض، وإذ بي وجدت أحدهم ينظر إلي، ويقف صائحا: "يا شيخ إبراهيم، شوف الراجل ده كـده، مربي دقنه وحالق شنبه، مريب أهو زي ما وصفت."

فارتفع الصوت في المسجد بين مؤيد ومعارض، البعـض يحـاول قتلي، والآخـرون تسليمي، وقلة قليلة تحاول الدفاع عني حتى يسألونني، وظلت الجلبـة مسـتمرة حـتى ارتفع صوت الشيخ إبراهيم وهو يقول: "اتركوه؛ فـإنه أحـد تلامـذتي"، ثـم طلـب إقامـة الصلاة.

أنهينا الصلاة، وانتظرت قليلا، ثم ذهبت أحادث الشيخ، فأخبرني أنه سـيعود إلى منزله، لأنه تبقى ما يقرب من خمـس سـاعات كاملـة على صـلاة العصر، فـرددت عليـه بأنني سأسير معه خارجا حتى يصل، ريثما أفهم منه مقصده، وأوضح له ما أريد، فرحب بهذا كثير.

فسألته: "يا شيخ، لم تؤيد الحكومة بهذا الشكل؟"

فأجابني: "سيبك من الفصحى والنحوي، وابعد عن الموضوع ده، عاوزين ناكل عيش!"

فرددت عليه: "انت يا شيخ اللي بتقول كده؟ بعد ما كنت ملهم في الصبر والجلد، وكنت أحد شيوخ المعارضة قبل ما الحكومة الأجنبية دي تيجي!"

"أيوة يابني، انت عارف ان منصب إمام المسجد ده مكنتش هعرف أوصله إلا لو عملت كده، وكمان بيجيلي فلوس كويسة، وأنا عاوز أربي ولادي، انا اكتشفت بعد ستين سنة إني مسيبتلهومش حاجة!"

"يا شيخ، عهدي بك أنك لا تبيع دينك بعرض من عرض الدنيا، فأنى لك هذا؟"

"ومين قال اني كده ببيع ديني؟ انا بقول الحق، بس انتوا اللي بتكابروا!"

"حق إيه يا شيخ؟ أي حق في اللي انت بتقوله، انت مش قرأت قول ابن حجـر الهيتمـي في الزواجر عن اقتراف الكبائر: الكبيرة السادسة والسابعة والثامنة والتاسـعة والأربعـون،

والخمسون بعد الثلاثمائة: ظلم السلاطين والأمراء والقضاة. والدخول على الظلمة مع الرضا بظلمهم وإعانتهم على الظلم والسعاية إليهم بباطل. ثم قال: قال سعيد بن المسيب: لا تملؤوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بإنكار من قلوبكم لئلا تحبط أعمالكم الصالحة. وجاء خياط إلى سفيان الثوري رحمه الله تعالى فقال: إني أخيط ثياب السلطان أفتراني من أعوان الظلمة؟ فقال له سفيان: بل أنت من الظلمة أنفسهم، ولكن أعوان الظلمة من يبيع منك الإبرة والخيوط؟"

"ومين علمك الكلام ده؟!"

"انت يا شيخ!"

"وأنا بردو اللي بقولك انساه، لأن لا دول ظلمة، ولا دي إعانة ليهم، وأنا بعمل اللي أنا شايفه الصح!"

"طب اقنعني ازاي شايفه الصح؟"

"انا شايف اللي انت مش شايفه!"

فقلت له: "وإيه بقى اللي انا مش شايفه؟"

فرد علي بلغة الصبية: "شايف البنت اللي بتجري هناك دي؟ تحس انها نازلة من البيت مخصوص عشان تبوظ علينا اليوم، ومنظر شعرها وهو بيطير يجنن!"

فقلت لنفسي سرا: "البنت دي أنا عارفها، دي صاحبة يوسف اللي كان مع شريف دايما! كان اسمها كريستينا تقريبا، مالها بتجري بسرعة كده!"..

الفصل الثامن:

الجنرال

حينما يظهر لأول مرة وكأنه الحامي،
هنا وهنا فقط،
ينبت الطاغية.

أفلاطون،
فيلسوف يوناني وعالم رياضيات،
ومؤسس أكاديمية أثينا،
وتلميذ سقراط وأستاذ أرسطو.
428 ق.م – 348 ق.م

"هربت؟ يعني إيه هربت؟"

"زي ما بقولك كده يا جنرال! لما سيادتك اتصلت امبارح عشان تتأكد! طلعنا نشوفها، ملقيناش غير محمود مرمي ع الأرض ومغمى عليه!"

"مغمى عليه ازاي! انا باعتلكوا بـ ِغال عشان تأمنكم، ديناصورات! أنا مش باعت بني آدمين عادية! وبعدين انت ليه مكلمتنيش أول ما عرفتوا إنها هربت!"

"ما إحنا راجعنا كاميرات الفيديو، عشان نشوف خرجت ازاي وراحت فين."

"ووصلتوا لإيه!"

"البت دي صايعة، أول ما أستاذ أمير خرج، طعنت محمود بحاجة في دراعه، تقريبا حقنة، ولمت حاجتها وخرجت، ونزلت في المجموعة مع أستاذ أمير، هما ركبوا العربية، وهي مشيت في الطريق العكسي!"

"وانتوا كلكوا نايمين على ودانكم! خرجت قدام عينيكم! انتوا مش عارفين أنا عملت إيه عشان أقعدكم على مكاتبكم دي، وأديكم المرتبات اللي بتاخدوها، ومفيش حد في البلد كلها يقدر يتكلم معاكم نص كلمة، لأن معروف إنكم رجالتي! طب وحياة أمك إنت وهم، مفيش حد منكم هيبات في بيته من النهاردة، ومفيش حاجة هترحمكم مني إلا الموت يا شوية كلاب! أنا اللي عملتكم بني آدمين! ومش عارفين تمسكوا عيلة لسه في العشرينات! ده الكلاب أفيد منكم يا شوية بقر!"

"يا جنرال إحنا رجالتك.."

فقاطعته: "رجالة إيه بقى! هي فين الرجالة دي؟! انتوا عارفين اللي هربت منكم دي تسوى إيه! دي من المتمردين يا غبي! وبنت، يعني كان هيبقى سهل إنها تعترف بكل حاجة تحت التعذيب! تخيل يا غبي إنها كانت جاية تؤدي مهمة معينة في المكتب عندكم! كانت جاية عشان تبعت عربية إرسال يذيعوا منها البيان! وانتوا بغبائكم سيبتوها تهرب!"

"هنلاقيها يا جنرال!"

"أنا مش هديلكم فرصة تدوروا! أنا بسببكم خسرت طقم له جمهور كبير وناس بتصدقه! يعني دراع الإعلام اللي بنحركه عشان الشعب يفضل نايم، ويفضل يهللنا ويشكرنا، اتقطع! تخيل بقى عما نقدر نوفر طقم تاني بولاء كامل غير المكتب الغبي بتاعكم ده! قولوا على نفسكم يا رحمن يا رحيم!"

وأغلقت المكالمة، ثم قمت بالاتصال بأحد ضباط مكتب مكافحة الإرهاب، فسمعته على الطرف الآخر يجيب.

"ألو.."

"الجنرال معاك يا حضرة الظابط، المكتب بتاع القناة اللي أمير الله يحرقه كان بيذيع منها، عاوزه يتحرق باللي فيه، واللي مكانش متواجد في المكتب ساعة الحريقة، تاخده عندك في المكتب، وتخليه يندم إنه متحرقش معاهم. وخلي بالك، عاوز الموضوع يبان طبيعي، ماس كهربائي في جهاز تكييف، وقضي الأمر!"

"تحت أمرك يا جنرال."

وأغلقت المكالمة مرة أخرى، كم يريحني ضباط مكافحة الإرهاب هؤلاء، فهم يفهمون المطلوب منهم فعله ويقومون بتنفيذه على أكمل وجه، وإنني لا أندم قط على إنشاء مكتب مكافحة الإرهاب وتعيين هؤلاء الضباط به وضمهم له، هذا يشعرني بالراحة.

إن رجالي موجودون بكافة قطاعات الدولة، فإن قضاء الدولة بأكمله يدين بولاءه لي، لا للوطن، ولا للقانون، إنهم يحكمون بما أشاء متى أشاء، فحين آمرهم بأن يتركوا الآلاف في السجون لينالوا قسطا كافٍ من التعذيب، يستمرون في تأجيل القضية، حتى أطلب منهم أن يقوموا بمحاكمة ألف منهم فقط، يحصلون فيها على سجن مؤبد أو إعدام، فيسمعون ويطيعون، ولم أسمع قط بقاض أصدر حكما مخالفا ما أمرتهم به، وأجبرتهم عليه، سواء أكان حكما أقسى مما طلبت أو أدنى من ذلك.

كما أن رجال الدين خاصتي، من الشيوخ المسلمين، والقساوسة المسيحيين، يقومون بدورهم على أكمل وجه، فهم يقومون بتدعيم الجانب الديني عند العامة، ليزيد إيمانهم بما نفعل، ويتيقنون أن المتمردين هم الخطر الأول على الدولة، وأنه يجب عليهم مساندة الدولة إن أرادوا خدمة الدين، وأن يتخلصوا من المتمردين إن أرادوا خدمة هذه الدولة.

وقوات الأمن أيضا تعمل بشكل جيد، فهم لا يدخرون وسعا للقضاء على كل من يحاول أن ينشر أخبارا غير التي نريد لها أن تنتشر، ويصومون نهارهم في التصدي لمحاولات نشر العنف والإرهاب في المجتمع، ويقيمون ليلهم في تعذيب هؤلاء الخارجين عن القانون؛ حتى يدركوا عظم الجرم الذي ارتكبوه في حق هذه البلد.

العامة لا يفهمون كيف نتعب من أجلهم، لا يفهمون ما الذي نفعله محاولين إبقاء هذا البلد صامدا أمام الأعداء من الداخل والخارج، فهم يعلمون أن البلد مستهدف من قبل أعداءه في الخارج، الذين يقومون بتجنيد أفراد من الشباب في الداخل، ويدربونهم على استخدام السلاح، ليخرجوا إلى الشوارع ويقتلوا الأبرياء.

لقد خُلقنا لنحمي هذا البلد من أعداءه، فلا نسمح لأحد من العامة عما نفعل، لأن هذه مسألة أمن قومي، ولا يجدر بأحد أن يعلم خفايا الأمور كما نعلم نحن، ولا يجوز لأحد أن يسألنا عما نعلم، أو لا نعلم، أو عن المال الذي يدفعه إلى أين يصل، وما الفوائد التي ستعود عليه، فنحن لا نجمع المال لأنفسنا، ولكننا نسعى لمصلحة الدولة.

التفكير في هذه الأمور شغلني عن البحث عن الفتاة، فأخرجت هاتفي مرة أخرى، وقمت بالاتصال بأحد مهندسي الاتصالات التابعين لمكاتبنا.

"ألو.."

"الجنرال معاك، المكتب بتاع القناة بتاع أمير، كان في موبايل تواجد فترة جوه، وخرج واتحرك من المكتب في نفس الوقت اللي أمير خرج فيه، الموبايل ده صاحبته بنت، عاوز كل المعلومات عنها، وتحددلي موقعها فين بالظبط حاليا"

"هستأذن سيادتك يا باشا أوفرلك المعلومات دي بعض صلاة الجمعة!"

"صلاة إيه دي اللي عاوزني استناها! انت قدامك خمس دقايق بالظبط وتكون المعلومات دي عندي! والصلاة تستنى شوية!"

"تحت أمر سيادتك!"

لا أعلم لم يقولون على المهندسين بأنهم أذكياء، إنهم قمة في الغباء، هذا الغبي يريدني أن أنتظر الصلاة، ويقول أنها صلاة الجمعة، وما يدريني أن يوم الجمعة به صلاة! علي في الفترة القادمة أن أختار بعض من ضباطنا الأكفاء، ليقوموا بأدوار المهندسين لدينا، بدلا من هؤلاء الأغبياء الذين لا نعلم من أين أتوا ولا كيف تعمل عقولهم الغبية هذه!

ثم سمعت هاتفي يرن، فإذ به المهندس الغبي، فرددت عليه:"وصلت لإيه؟"

"البنت اسمها يوستينا يا جنرال، كانت متواجدة جنب الجامعة قبل ما تروح المكتب، وحاليا متواجدة على بعد شارعين من مسجد العاصمة، سيادتك تحب نبعت قوة تجيبها ولا نفضل نتابعها؟"

"ابعتوا هاتوها، واوعى تفلت منكم."

الفصل التاسع:

المتمرد

أنا لا أخشى جيش من الأسود يقوده خروف،
ولكنني أخشى جيش من الخراف يقوده أسد.

الاسكندر الأكبر،
أحد ملوك مقدونيا الإغريق،
ومن أشهر القادة العسكريين عبر التاريخ.
356 ق.م – 323 ق.م

وصلتني أوامر عبر الهاتف بأن أنتظر يوستينا في الميدان القريب من مسجد العاصمة، وقفت أنتظرها قليلا، لا أعلم كيف تبدو، ولكنني أعلم بأنها في خطر، لذا فإنني سأختار الفتاة التي سأجدها قادمة تجري، أو التي ستقف قلقة في الميدان. كل ما لدي من معلومات أن الجنرال أرسل طاقما كاملا لإحضارها، فأرسلوني بسيارتي المصفحة لها، أيظنون أنني قادر على مقاومة هذا الطاقم بمفردي!

الحركة في الميدان هادئة، لا يزال المارة يبتاعون من سوق الجمعة الموجود بالميدان، وبعض الباعة يملأون الميدان بنداء على بضائعهم، ولكنه نداء شبيه بالصراخ، فتشعر أن بائع الطماطم الذي ينادي: "مجنونة يا قوطة!"، يقوم بسب الطماطم بدلا من النداء عليها، ولا أحد يكترث سواي.

ظلت عيناي تتابع مدخل الميدان من جهة المسجد، كلما دخلت فتاة غير محجبة تفحصتها؛ لأرى إن كانت هي أم لا! ولكنني لا أجدها هي، بدأت أشعر بالملل، فبدأت أداعب الذباب الواقف على زجاج السيارة باستخدام مرشات المياة، فانشغلت بالأمر قليلا وفقدت تركيزي، حتى لاحظت وجود جلبة في أحد جوانب السوق.

كان المشهد غريب بالنسبة لي، لقد وجدت يوستينا، تركض بين المارة، ويركض خلفها شيخ في نحو الأربعين من عمره، ولا أحد من المارة يساعده، بل يحاولون إعاقته، فترى المشهد وكأن شخص يطارد لص سرقه، والناس تُدافِع المسروق لا السارق، سُحقا لتبدل المفاهيم لديهم.

لم يكن لدي متسع من الوقت للتفكير في هذا المشهد، فاندفعت بالسيارة إلى نهاية الممر التي جريت خلاله يوستينا، وما أن وصلت حتى فتحت الباب، وقلت بسرعة: "اركبي، انا اللي ههربك!"، فلم تناقشني، وجلست على الكرسي الخلفي بالسيارة، حاولت الانطلاق خارج السوق، ولكنني فوجئت بمدرعة تغلق الطريق الذي أردت الخروج منه، والجنود أمامها متهيئون لإطلاق النار.

لم أحتج وقت لأفهم أنه سيتم إطلاق النار علينا مباشرة، فادرت السيارة سريعا، ولكنني كدت أصدم أحد الأشخاص! إنه الشيخ الذي كان يطارد يوستينا! ولكن له وجه أعرفه، وقمت بتمييزه سريعا! إنه الشيخ ياسين، أحد فقهاءنا المتمردين، ففتحت الباب الأمامي له سريعا، فركب دون أن يتكلم بكلمة واحدة، وانطلقت في الطريق المعاكس!

كنت أعلم بأن اليوم سيكون ملحميا، فإن هذه الفتاة تعني لهم الكثير، لا أعلم لِم يهتمون لها بهذا القدر، ولكنها إن عنت لهم الكثير، فستعني لنا الأكثر، بدأت أسمع نغمات ارتطام الرصاصات بمؤخرة السيارة، شعور رائع أن تقود سيارة مصفحة من

سيارات الدفع الرباعي الكبيرة الحجم، فأنت تعلم بأن رصاصاتهم تلك لـن تؤذيـك قـط مهما فعلوا، إنهم مجرد هواة مقارنة بما تملكه من عدة وعتاد.

نظرت في المرآة لأحدد مقدار قوة الطاقم المطارد لنا، ولكنني وجدت سيارتين رياضيتين، ومدرعة، ولا شئ آخر، فناديت على الشيخ ياسين: "شيخ ياسين، هتبدل معايا، انت هتسوق!"، هز رأسه موافقا، لم يناقشني في أمر قط، كما لم أناقشه في أمر قط، فبدلنا الأماكن سويا سريعا، والفتاة تصرخ: "هنتقلب!"، فضحك منها الشيخ ياسين:" متقلقيش يا بنتي، إحنا عملنا الحركات دي مليون مرة! متخافيش!".

بدأت الفتاة ترد عليه وتناقشه، ولكنني لم أكترث لما يقولون، فلدي مسئوليات أهم بالخارج، فسحبت سلاحي الآلي من أسفل الكرسي، وأخرجت الربع الأعلى من جسدي من فتحة السقف بالسيارة، وبادلتهم إطلاق النيران، لم أستطع إصابة أحد منهم، خاصة مع وجود إطلاق نيران كثيف علينا، فعدت للداخل:"شيخ ياسين، مش عارف اصيب حد، اطلع ع الدائري!"، ثم أخرجت رأسي مرة أخرى لأرى ما الوضع، ولكنني سمعت الفتاة تعترض على مبادلتنا لإطلاق النيران مع الجنود، والشيخ ياسين يرد عليها: "في حد هيموت النهاردة، يا احنا يا هما!، تختاري مين!"

"وليه لازم حد يموت!"

"لأنهم مش هيسبوكي في حالك! وهيفضلوا لآخر نقطة دم بيجروا وراكي، واحنا مش هنقدر نمنعهم غير بالقتل!"

"طب واحنا فرقنا إيه عنهم، إحنا بنقتلهم وهما بيقتلونا!"

ظلت أذنتاي مشغولتين بالحوار، ولم أفكر قط في إطلاق النار، ومحاولات يائسة منهم لإصابة السيارة المصفحة، ولكن هيهات، فقد خطرت لي فكرة رائعة، أخرجت من تابلوه السيارة قنابل يدوية، ثم صعدت إلى الأعلى، وقمت بالتصويب على مقدمة السيارة الأولى، فأشاح السائق بوجهه، فلم ينظر أمامه، ولكنه أخطا حينما لم يحاول أن يسير في مسار متعرج ليتفادى الرصاصات، فأصبح هدفا سهلا، ولم أتردد في إطلاق الرصاصات على مقعد السائق، ولا أخفى سعادتي برؤية الدماء وهي تنتشر على الزجاج الأمامي للسيارة، ثم تميل على أحد جوانب الطريق، وتنقلب رأسا على عقب.

حاولت تكرار ما فعلته بالسيارة الأولى مع السيارة الثانية، ولكن لم تفلح هذه المحاولات، فسائق السيارة الثانية حافظ على سير السيارة في خطوط متعرجة، فلم أحصل على فرصة واضحة لإصابته، ولكن حينما لاحظت أن سيارتنا وصلت إلى الطريق الدائري، وبدأت بالصعود أعلى الكوبري، خطرت ببالي فكرة أخرى.

إن ممر الصعود يمثل منحنى دائري نوعا ما، لـذا إن أسرعنا قليلا بالسـيارة، قـد أحصل على فرصة قوية لرصاصة في خزان الوقود الخاص بالسيارة، فناديت بصوت عـالي: "زود السرعة شوية يا شيخ!"، فزادت السرعة، ولكن كلما زادت السرعة، ابتعدنا أكثر عن السـيارة، فلـم أحصـل على مسـافة كافيـة لرؤيـة أفضـل، وعبثـا قمـت بـإطلاق بعـض الرصاصات علها تصيب، ولكن لم تفلح.

حـاولت التفكير في شـئ آخـر، فطلبـت مـن الشـيخ ياسـين أن يوقـف السـيارة بمنتصف الطريق ليغلقه، فتوقف بسرعة وانحرفـت السـيارة قليلا فـأغلقت حـارتين مـن الطريق، والسيارات المارة من حولنا تنطلق مسرعة هربـا مـن الرصـاص، قمـت بتثـبيت نظري على السيارة القادمة مسرعة خلفنا، فسمعت الشيخ ينادي: "ما الأمر!"

فقلت: "أحتاج فقط إلى ضربة واحدة واضحة!"

وبدأت عيناي تركـز اكـثر على السـيارة، وشـعرت كـأن الزمـن قـد أصـبح أبطـأ، فنظرت من المنظار الخاص ببندقيتي، لم يتبـق رصـاص كـثير، رصاصـتين فقـط. شـاهدت السيارة تتحرك داخل المنظار، تقترب، والصورة تتضح شيئا فشيئا، حتى شاهدت بوضـوح وجه قائد السيارة في المنظار، ثـم انقبـض سـبابتي على الزنـاد يجـذبه، فسـمعت صـوت الرصاصة وهي تخرج من البندقية.

ولا كذب إن قلت أنني شعرت بالرصاصة وهي تخرج من فوهة السلاح، وتسير خلال الهواء بسرعة شديدة وهي تدور حـول نفسـها، لتخـترق زجـاج السـيارة الأمـامي، وتستقر في وجه ذلك السائق، لتجعله يحتضن المقـود، فتميـل السـيارة خـارج الطريـق، وتسقط من أعلى الكوبري لتتهشم، فلا أدري أكان التركيز الزائد والحماس، أم هي نشوة الانتصار، فلم يبق سوى المدرعة ورصاصة واحدة.

الرصاصة لن تكفي للتخلص من المدرعة، ولكن القنابل اليدوية سـتكفي، فقـط سأحتاج قنابل دخان، فعدت للداخل: "شيخ ياسين، اطلع بسرعة من نفس الطريـق اللي جينـا منـه، وامشي مخـالف!"، ثـم أخرجـت قنبلـتي دخـان، وكانتـا عزيزتـان علي، فقـد صنعهما شريف بنفسه، من سـكر المطبـخ و السـماد الموجـود بأحـد الحـدائق القريبـة، حينما كنا نتدرب سويا، حتى أننا أطلقنا عليهما اسم المُخَلِّصَتين، لأنه لن نسـتخدمهما إلا حينما سنكون في مأزق حقيقي.

استفقت مـن غيبوبـة ذكريـاتي، والشـيخ ياسـين قـد اسـتدار بالسـيارة بالفعـل، وانطلق مسرعا، في الطريق العكسي عائـدا كما أتينـا، ومواجهـا للمدرعـة القادمـة، الـتي توقفت على الفور لتغير الاتجـاه، فصـعدت للأعلى، وحينما اقتربنـا مـن المدرعـة، قمـت

بإلقاء واحدة من قنبلتي الدخان على المدرعة، ثم انتظرت ثانيتين حتى بدأ الدخان ينتشر، ثم ألقيت القنابل اليدوية، حتى لا يرى الجنود في المدرعة، أنها قنابل يدوية، ولئن رأوها، لظنوا أنها قنابل دخان، فلم تمر ثوان حتى سمعت صوت انفجار من خلفي، شبيه بطبل يعني النهاية.

ولكن أي نهاية، سمعت أصوات متتابعة عن يميني، صوت شبيه بهدير محركات طائرة هيلكوبتر مجاورة، ولم تخطئ أذناي في سماع شئ قط.

عدت لداخل السيارة، فسألتنا الفتاة: "هنعمل إيه!"، فضحكت، وقلت لها: "وسعي بس كده!" وقمت بمد يدي أسفل الكرسي الذي تجلس عليه لسحب لعبة كبيرة الحجم، والشيخ ياسين يضحك ويقول: "هو انتي يا بنتي مش كنتي بتلعبي أتاري وانتي صغيرة؟! لازم بعد ما تعدي مرحلة صعبة، لازم تواجهي الوحش!"

فصرخت: "وهو ده الوحش؟! وده هنموته بإيه؟!"

فسحبت مدفع الصواريخ، الستينجر المخبأ أسفل كرسيها، وقلت: "هما غاووين لعب، يبقى نلعب سوا بقى!"

وسحبته إلى خارج السيارة، لننهي اللعبة.

الفصل العاشر:

الزوار

الجميع يقلق بشأن منع الإرهاب،
حسنا، إليكم طريقة سهلة حقا،
توقفوا عن المشاركة في صناعته.

نعوم تشومسكي،
أستاذ لسانيات وفيلسوف،
بمعهد ماساتشوستس.

1928 – وحتى كتابة هذه السطور.

ما أن وصلنا إلى المكان الآمن الذي أخبروني عنه، حتى بـدأت أسـترجع في ذاكرتي ما حدث، لقد انطلقت إلى مكتب الإذاعة كما طلب مني شريف، وحاولت قدر الإمكـان ان أحضر طاقم التصوير والبـث لتغطيـة التظـاهرة في الجامعـة، أو هكـذا كـان عليّ أن أدعي، أخبرني شريف حين طلب مني هذا، أن التظاهرات فقط لن تسمن ولن تغني من جوع، وأنه يجب علينا أن نزيد مسـاحة تأثيرنـا على العامـة، فيجـب علينـا إذاعـة بيـان تيليفزيوني يصل للعامة؛ يوضـح لهـم كـذب الإعلام وتزييفـه للحقـائق، وكـذب المحتلين وحكومتهم الطاغية عليهم.

لم تسر أموري بشكل جيد، فلم أستطع إرسال الطاقم، ولم تسر الأمور بالجامعـة أيضا بشكل جيد، فقد حدث كما توقع لنا شريف، أن يتواجد مندسين داخـل التظـاهرة، يحملونها إلى غير ما نظمت له، ويكدرون مظهرها السـلمي بـألوان التخريـب والعنـف، ولكن حدث ما لم أتوقعه، ورد اتصال هاتفي من أحد كبـار شخصـيات الدولـة إلى ذلـك المراسـل بـالمكتب المسـمى بـأمير، فتحـرك على الفـور للخـروج، ولكنـه نـادى على أحـد الحراس، وطلب منه إلقاء القبض عليّ.

حينما تحدث أمير عن الذكاء أمامي، حين قال أن المتمردين ليسـوا بهـذا الغبـاء للقدوم للمكتب، شعرت بأننا نفوقه ذكاء، فها هو الآن ينفـذ خطتنـا، ولكـن دون علـم، وكما توقعت، حقنة الصوديوم بينتوثال كانت كفيلة به، فهؤلاء الأشخاص بأجسام البغال وعقول العصافير، كبرت أحجام أجسادهم، ولكنهم لا يفقهـون شـيئا في العلـم والمعرفـة، فمحتويات الحقنة اندفعت في رقبته بسرعة شديدة، وسقط على الأرض إثر الصدمة.

لم أترك وقتا كـثيرا للتفكير في الهـروب، وخرجـت في ثبـات، فوجـدت الطـاقم لا يزالون يتحدثون بالخارج، فتحدثت للسيكرتيرة بالخارج: "محمود جوه دقايق وهيخرج، واحنا هنروح الجامعة، هنزل أجهز حاجتي عشان نروح، لو أستاذ أمير سأل عليـا قـوليله إني تحت!"، لا أدري لِمَ فعلـت هـذا، ولكـن الغـرور أخـذني لشـعوري بـالتفوق العقلي، والحمد لله لم تفشل خطتي، بل نجحـت بتفـوق ملحـوظ، لقـد تحركـت خلال الطـاقم، ونزلت معهم حتى خرجت من المبنى، ثم اتخـذت اتجاهـا آخـر وأخـذت سـيارة أجـرة، عدت للجامعة، ولكنني لم أسـتطع الـدخول، بسـبب إطلاق النـار والتفجيرات الموجـودة هناك، ولكنني علمت أن أصدقاءنا يُقتلون بالداخل في ذلك الوقت، ولم أستطع فعل شئ حيال ذلك، فاتصلت بجورج.

"جورج إيه اللي بيحصل عندكم؟"

"روّحي يا يوستينا، اللي بيحصل عندنا ملكيش مكان فيه!"

"مين مات ومين كويس؟ وايه الصوت اللي جنبكم ده!"
"يوستينا، مفيش وقت للكلام ده، امشي من عندك بسرعة!"
"أمشي أروح فين، أنا مش هقدر أروّح البيت، دول كانوا عاوزين يقبضوا عليا!"
"اديني ثواني.."
ثم سمعت أصوات في الخلفية، وكأن جورج يعطي الهاتف لشخص آخر، فسمعت من جانبهم صوت شريف يرد:" يوستينا، اسمعي الكلام ده هقوله مرة واحدة، سامعاني كويس؟"
"معاك!"
"المسجد الكبير، ادخلي من الشارع اللي جنبه على طول، تاني شارع على إيدك اليمين، العمارة التانية ع الناصية اللي هتبقى على شمالك، في الدور الخامس، اطلعي في الأسانسير، حركي إيدك في جوانب السقف، هتلاقي المفتاح ملزوق فيه، اقعدي في الشقة هناك لحد ما نقدر نهرب! متخليش حد يعرف ان الشقة فيها حد متواجد! تمام؟!"
"تمام!"
"أول ما توصلي، كلمينا هنا انك وصلتي، واحنا هنحاول ننهي الأزمة اللي بتحصل دي على أكمل وجه!"
"طب مش هتعرفوني إيه اللي بيحصل؟"
"مش دلوقتي، كل حاجة في وقتها، فاكرة الكلام اللي قلتلك عليه؟"
"أيوة!"
"خليه في اعتبارك عشان احتمال منروّحش النهاردة، وعملتي إيه في موضوع الإعلام!"
"الطقم اتحرك والمفروض انه وصل دلوقتي!"
"تمام! روحي المكان حالا، واوعي حد يشوفك! سلام!"

وأغلق الهاتف، وانطلقت مسرعة في سيارة أجرة إلى ذاك المكان الذي وصفه، وجدت كل شئ كما وصفه، وتوقعت أن أقضي الليلة قلقة، ولكنني نمت إثر الإرهاق، واستيقظت على أصوات القصف في المساء، فقد كانت الطائرات تجوب السماء ذهابا وإيابا لتهاجم الجامعة، فقمت بتشغيل التيليفزيون لمتابعة آخر الأخبار، فوجدت بيانا أذاعه شخص ما، وهو الذي أقلني إلى هنا، وقتل العديد من الجنود لإحضاري، وعلمت لاحقا أن اسمه (عُمر).

مفاد البيان أنه قد تم تنظيم تظاهرة سلمية اندس خلالها المخربون، واشتبكوا مع قوات الأمن، التي قامت بدسهم مسبقا في التظاهرة، وقامت لاحقا بقتل العديد من

المتظاهرين، فاستطاعوا التواصل مع المتمردين بالعاصمة، بعد مقتل ما يزيد عن مائتين وخمسين شخصا، لوقف الدماء بالجامعة، وتعاملت قوات المتمردين مع قوات الأمن بداخل الجامعة، وتبادلوا إطلاق النار، وأشعلوا النيران بالمدرعات والسيارات، وأطلقوا صواريخ من مدافعهم على طائرات الأمن بدلا من محاولات صيدها.

وأكد عُمر في البيان، أن هذه قد تكون الأولى من نوعها التي تحدث فيها مواجهة بين المتمردين وقوات الاحتلال، ولن تكون الأخيرة، ويجب على المحتلين الرحيل، قبل أن تنقلب الأمور إلى يد المتمردين، ولن يسمحوا للمحتلين بالخروج حينئذ، وأن المتمردين على استعداد تام للتعاون مع كل من يقدم يد العون للتخلص من الاحتلال.

نمت تلك الليلة باكية، ولكنني استيقظت في اليوم التالي على صوت صفارات سيارات الأمن التي دخلت الشارع، نظرت من الشباك لأجدهم يصعدون للمبنى، عرفت أنهم قادمون من أجلي، فكرت في النزول إلى الشارع، ولكن ماذا إذا تعرف علي أحدهم؟!

اتصلت على الفور بجورج، وقلت له أنهم قادمون من أجلي، فأعطى الهاتف إلى شريف، فقال: "اطلعي السطح، ونطي للعمارة اللي ع الناصية، بوابتها على الواجهة التانية في الشارع، محدش هيشوفك وانتي خارجة، انزلي ع السلم بسرعة، واخرجي من المبنى، وانا هخلي حد يستناكي بعربية سمرا كبيرة في الميدان اللي ناحية الجامعة، عارفاه!"

أجبته: "أيوة، بس هعرفه ازاي؟!"

فأجابني بثقة: "مش مهم، هو هيعرفك!"

نفذت كل كلمة قالها بالحرف الواحد، ولكن حينما كنت أركض إلى الميدان، شاهدني ذلك الشيخ الكبير، علمت اسمه لاحقا أن اسمه (ياسين)، نادى عليّ ولكنه قال: "كريستينا!" فلم أهتم، لربما أخطأ، وليس هذا وقت الحديث والتعارف. ركض خلفي، فشككت به، فبدأت أتخذ شوارع جانبية للانتقال حتى لا أصل للمكان مباشرة، ومحاولة مني لأن أجعله يفقد أثري، ولكنه كان تصرف سيء مني، فقد انتبه الجنود إليّ بسبب صرخاته، فبدلا من أن كان يركض خلفي، صار يركض معي.

وصلت الميدان وركبت السيارة، وشاهدت عنف المتمردين، هؤلاء ليسوا ملائكة كما قال شريف عنهم، لقد قال لي أنهم ليسوا فقط كما نراهم على التلفاز، ولكنهم:"منتشرين في كل أنحاء الدولة، موجودين في السياسيين، والرياضيين، وحتى في الحكومة نفسها، القصة نفسها بدأت لما الاحتلال كان لسه جديد، وكان في نية

للمقاومة، ناس قررت تاخد الحل السياسي، وناس قررت تسلك المسار الثوري، طبعا السياسيين أنواع، والثوريين أنواع، في سياسيين بتوع مناصب، يهمه المناصب وميهموش التخلص من الاحتلال، ودول باعونا، وسياسيين تانيين معروفين انهم معارضين، وغيرهم معروف عنهم انهم مؤيدين، أما الثوار، فكانوا نوع واحد، نوع مسلح، شرس، كنا بنروح نتدرب في الصحراء ع ضرب الرصاص والصواريخ، بس في عمليات نوعية ضد قوات الاحتلال، كنا بنتدرب اننا منعترفش تحت التعذيب، عشان لو العملية فشلت او حد اتمسك، ميقولش حاجة!"

فأجبته: "وتموتوهم عادي كده؟!"

فأجابني: "متنسيش إنهم محتلين أرضنا، وقتلوا مننا كتير، ولسه هيقتلوا كمان، لكن موضوع العنف ده ان شاء الله مش هيستمر كتير"

"ليه؟!"

"أنا بدأت أدرس الحراك السلمي، وازاي نقدر نجلي مستعمر عن أرضنا، من غير ما نحاربه بالسلاح، لكن لسه محتاجين فترة طويلة ننمي الثقافة دي!"

"ولحد ما يجي اليوم ده هنفضل نموت؟!"

"احنا منتشرين في المجتمع بشكل أكبر مما تتخيليه، إحنا عندنا ناس في قوات الأمن عندهم!"

"وليه مبنتحركش دلوقتي، وننهي الأزمة!"

"عشان الناس مش هاممها حاجة، مش هاممها أرض، مش هاممها عرض، كل همهم ياكلواويناموا!"

"وهتفضلوا تقتلوهم ويقتلوكوا كده!"

"عشان كده لازم نتحد!"

...

الفصل الحادي عشر:

المسجون

عندما يصبح الظلم قانونا،
تصير المقاومة واجبا.

توماس جيفرسون،
الرئيس الثالث للولايات المتحدة،
والكاتب الرئيسي لإعلان الاستقلال.

1743 - 1826

أنهيت مكالمتي مع يوستينا، وطلبت منها أن تترك هاتفها النقال في المنزل؛ خشية أن يقوموا بتتبعه مرة أخرى كما قد يكون حدث في المرة الأولى حين استطاعوا تحديد مكانها، وأعطيتها العنوان الجديد لتحضر مع عُمر وياسين إلينا.

كان الجميع يتحدثون عن ما يشبه ساعة الصفر، أو نقطة الإطلاق، أو وقت الرحيل، لم أفهم منهم شيئا، ولكنني كنت أعلم بأننا مشرفين على ساعات هائلة شديدة، كثيرة في أحداثها، وصعبة في تحملها؛ فقد تم تحديد موعد لاجتماع طارئ يحضره العديد من الشخصيات الهامة والقيادية في مجموعة المتمردين، ولم يتبق سوى ساعتين فقط على الموعد، فجلست أشاهد التلفاز منتظرا موعد الاجتماع.

مكثت فترة قليلة أقلب في القنوات بحثا عن شئ يستحق المشاهدة، لم أجد شيئا على الإطلاق،فظللت أشاهد الإعلانات حتى وصل شريف، وجلس بجواري، فقال:"إيه الأخبار النهاردة يا جورج؟"

فأجبته: "مفيش حاجة، دنا بشكر الرب ان مفيش حد اتمسك جديد أو حصل قتل جديد في اشتباكات أو في معركة النهاردة."

"متقلقش يا جورج، أم المعارك نفسها جاية أهي!"

"أنا مش عارف إيه اللي جاي! كلكم بتتكلموا عن حاجة هتحصل يوم التلات! بس أنا مش عارف إيه اللي هيحصل بالظبط!"

"مش يمكن احنا مش راضيين نقولك عشان مصلحتك؟"

"مصلحتي في إني مبقاش عارف؟"

"أيوة، مش يمكن المعرفة تضرك؟ لو عرفت معلومة زيادة يضرك!"

انفعلت عليه فقلت: "بص يا شريف! لو شايف إني حد مستحقش الثقة، فمتقوليش حاجة، ومش هحضر الاجتماع كمان عشان المعلومات الزيادة!"

فأجابني بهدوء: "أنا مقولتش كده، بس تخيل لو لا قدر الله حصلك حاجة، ساعتها هتندم على كل معلومة زيادة متخصكش سألت عليها، لأنك وانت بتنزف أثناء التعذيب، بتنزف مع الدم معلومات! المعلومات دي ممكن تضر ناس كتير، زيك وزي يوستينا، وزيي، ممكن تضر ناس كتير بسبب معلومة واحدة زيادة!"

شعرت بنوع من الاطمئنان، فأردت أن أستزيد، فسألته: "طيب ممكن تقولي احنا هنعمل إيه بالظبط؟"

فأجابني: "هننزل الشارع! بس مش لوحدنا!"

ذهلت من الإجابة! فقلت :"شارع إيه؟ وهو حد مانعنا ننزل الشارع؟"

فرد بسرعة وهو يضحك:"مش النزول اللي في دماغك ده، أنا اقصد نزول الشوارع، إزحامها، إحتلالها."
"ازاي؟"
"مظاهرات. اعتصامات. مسيرات. أي حاجة نفسك فيها هتلاقيها."
"وده ازاي بقى؟"
"ازاي دي هتعرفها في الاجتماع، لكن أنا بقولك الفكرة كلها، انت عارف دلوقتي القلوب بلغت الحناجر، ومعدش حد مستحمل اللي بيحصل، الناس بقت مدركة تماما ان المقاومة مش هتوقف معركتها مع المحتلين إلا لما المحتلين يمشوا، المعركة بقت خلاص، يا احنا يا هما!"
"وهو ده مفهوم الوطن عندكم؟ يا احنا يا هما؟!"
"مفيش وطنية مع محتل يا جورج، الشخص ده بياخد من حقك انت، ويا ريته ساكت على النهب والاستغلال، لأ، ده كمان بيموتك ويسجنك، ومش سايبك تعيش حياة كويسة!"
"طب والناس؟ الناس هترضى تنزل معاكم الشوارع؟ مش هيخافوا؟"
"بص، الدنيا بقت عاملة زي الدومينو، لما بترصهم ورا بعض، وبعدين تحرك واحدة منهم تقع، فالباقي كله يقع."
"حلو، وفين الواحدة اللي هتقع؟"
"الواحدة دي هي حدث بسيط، هيشعل كل الأحداث اللي بعده، عامة كل شئ مترتب ومدروس بعناية، هتعرف كل التفاصيل في الاجتماع ان شاء الله!"
ثم سمعنا صوت برنامج حواري عبر التيليفزيون، فقال شريف لي:" انت تعرف الراجل اللي قاعد مع المذيع ده؟"
فأجبته: "أيوة، مش ده اسمه سامح معرفش إيه كده، ده الراجل التاني بعد الجنرال على طول."
"عليك نور. احفظ شكل سامح ده كويس. عشان في مفاجأة ليك النهاردة"
"مفاجأة إيه؟"
"استنى بس عشان نسمع!"
والتفت إلى التيليفزيون لأشاهد ما سيحدث، فوجدت الحوار يدور بين سامح والمذيع، والمذيع يسأل سامح:"تفتكر هيكون إيه الموقف لو حصل تفجيرات في الحشد اللي المتمردين ناويين يعملوه يوم التلات الجاي؟!"

فأجابه سامح:"هو يعني إيه حشد أصلا؟ القانون بيمنع احتشاد الجماهير في أي مكـان! ده احنا لغينـا الحفلات الفنيـة، والجمهـور في الاسـتاد في المباريـات الرياضـية، واتمنعـت صلاة الجمعة في المساجد الكبيرة، عشان نمنع التجمعات دي. عشـان ميبقـاش في حاجـة اسمها حشد. وعامة لـو حصـل، فهيبقـى في حشـد مضـاد، وكـبير كمان، أكـبر مـن عـدد المتمردين نفسهم."

"طب بالنسبة للتفجيرات؟"

"متقلقش، مفيـش حـد هيفجـر في تجمعـات كـبيرة، في ضرر كـبير على سـمعتهم قصـاد العامة!"

"يعني الإدارة مش قلقانة من حدوث تفجيرات؟"

"إطلاقا"

"تمام، بنشكر حضرتك على تواجدك معانا يا فندم، وشاكرين وقت ومجهود حضرتك!"

فقال شريف: "أنا سعيد، إحنا كده أخدنا التمام، اسمع بقى يا سيدي في شوية كلام مهم لازم تعرفه!"

فأجبته: "تمام إيه؟ وكلام إيه؟"

"اسمعني بس، الناس هتفضل خايفة، طول ما هما خايفين على أرواحهم، لازم تحميلهـم أرواحهم عشان ميخافوش وينزلوا!"

"ازاي؟"

"بص، الإنسان بيتطمن أول ما بيلاقي نفسه حامي نفسه وجسمه، وساعتها هينزل، لازم تحسسوا النـاس في الميـادين إنهـم محميين، أول حاجـة، المتمرديـن نفسـهم متخفيين في الميادين عشان يحموهم من أي هجوم غادر، تاني حاجة، في حاجات النـاس لازم تحمـي نفسها بيها، أي حاجة تعلمهم بيها يحموا جسمهم، البلاستيك بتاع جرادل الزبالة، دروع خشبية، حتى ولو هيلبسوا حلل في دماغهم."

"تمام."

"وحاجـات كمان، لازم في الميـدان اللي هتتواجـدوا فيـه يبقـى فيـه منصـة، ويبقـى في شخصيات معروف إنها قياديـة، والنـاس لازم يسـمعوا كلامهـم، وميسـمعوش كلام نـاس تانية، عشان هيبقى في مندسين كتير!"

"عندك حق!"

"أنا هكون موجود، بس مش هقدر أساعدكم!"

"ازاي؟!"

ثم سمعنا أصوات شخص يتألم في الغرفة بالداخل، فتذكرنا ذلك الضابط الذي أسرناه يوم كنا بالجامعة، يتألم وهو يحاول نزع قيده، فدخلنا إليه، فألقى شريف عليه التحية بقبضة يده يجره إليه وهو يسأل:"مالك؟"
فأجاب بخوف: "انتوا هتفضلوا سايبيني هنا كتير؟"
فرد عليه شريف بابتسامة باردة: "لا متقلقش، انا بس مستني ان ناس توصل هنا، عشان ابعتك للمكان اللي هترتاح فيه."
"يعني هتخرجوني من هنا؟"
"وهنوديك أحسن مكان ممكن تروحه! شوفت احنا بنعاملك حلو ازاي؟"
"انا متوقعتش كده منكم."
"بص، انت عيشت طول عمرك تخدم جهة معينة، بس للأسف الجهة دي انت متسواش عندهم بصلة، والجهة اللي انت عيشت تعاديها، هي الجهة اللي هتقف في صفك عشان تحميك."
"كذاب!"
"هثبتلك إني كذاب، أنا هبعتك في المكان اللي يوستينا كانت فيه، اللي هما رايحين يقبضوا عليها فيه دلوقتي، وهتشوف هما هيعملوا إيه لما يعرفوا انك موجود."
وقفت مذهولا كيف يفكر شريف هذا؟ ما الذي يحاول إثباته؟! وقطع حبل تفكيري صوت أقدام بالخارج، فنادى شريف: "عُمر! تعالى هنا حالا!"
فدخل عمر: "خير؟"
رد شريف: "عاوزك تاخد سيادة الباشا وتوديه في الشقة اللي كنتم فيها، وهتعمل مكالمة تيليفون، تبلغ فيها ان الباشا هو اللي في الشقة، مش يوستينا!"
عمر: "حالا أهو!"

ثم جذبه عمر وسحبه إلى الخارج، وأخذني شريف أنا ويوستينا والشيخ ياسين إلى قاعة الاجتماعات، وأضاء القاعة، ثم كتب على السبورة "إعدام الجنرال".

سادت لحظات من الذهول والصمت، لم تقطعها إلا أصوات دخول أفراد من الخارج، حيث دلف إلى الحجرة، ثلاثة أشخاص يرتدون بذلات، ميزت واحدا من بينهم، إنه سامح، الذراع اليمنى للجنرال، وشخصان آخران من السياسيين المعروفين في الدولة.
فصرخت يوستينا إلى سامح:"انت إيه اللي جايبك هنا!"
فرد عليها شريف: "مش قولتلك إننا واصلين، ومتمركزين في البلد؟"
فقاطعتهم: "خلينا في المهم، هتعدم الجنرال ازاي؟!"

فأجـابني شريف: "شـايف السـيف الفضي اللي متعلـق وراك على الحيطـة ده، هتاخـده معاك وانت جاي تحضر إعدامي، لما أتمسـك في الكمين اللي هيتعمـل كمان سـاعتين على الطريق الدائري."

الفصل الثاني عشر:

الميدان

اللي خايفين على البلد لأحسن تموت،
متخافوش الموت سكوت،
واحنا مش في الخطة أصلا،
إن بكره يكون سكوت.
إحنا شايلين حلمنا ومكملين،
بكره بيشاور علينا وإحنا مش مستعجلين،
ما إحنا لينا كام سنة متقندلين،
صابحين في طين، نايمين في طين.

من قصيدة مكملين، لهشام الجخ،
شاعر مصري، ملقب بهويس الشعر العربي.

بدأ الاجتماع، فتحدثت أنا في بداية الاجتماع: "اسمحولي أعرفكم بنفسي، عشان لو حد هنا ميعرفنيش، أنا مصطفى محمد، عضو في مجلس النواب، وهبلغكم بآخر التطورات اللي وصلنا لها، إن شاء الله الكمين هيكون واقف ع الدائري كمان ساعتين جاهز، معاهم صورتك ومستنيينك، وكلهم من رجالتنا، محدش هيفتشك لحد ما تقف ع المنصة عشان تتعدم، يوم التلات بردو ان شاء الله، اليوم اللي هيكون مقرر لإعدامك بحسبب قرار سامح، اللي هيطلعه فيما بعد، بإن ميعاد إعدامك يكون يوم التلات، عشان يبقى نفس اليوم اللي كنت بتدعو الناس للاحتشاد فيه، يبقى نفس اليوم اللي تتعدم فيه، وهنخلي الجنرال يحرص إنه يبقى حاضر بنفسه، عشان يشوف زعيم المتمردين وهو بيتعدم. ده اللي من جانبنا والباقي عليكم."

فعقب سامح على كلامي: "بنفكركم كمان إن يوم التلات ده الفرصة الأخيرة، البنزين خلاص محطوط جنب النار، فاضل بس الحدث اللي يخلي النار تمسك في البنزين، وده لما يحصل، والعالم كله يتفرج على الهواء مباشرة للجنرال العتيد والسيف بيجري في رقبته وبيعلن انتهاء فترة حياته وحكمه، هتخلي الموقف العالمي يتراجع عن نظرته للمتمردين كمجرد جماعة تخريبية، وهتعرف إنها ليها أهداف ومطالب، وإن عدم رضوخهم للمطالب دي وتحقيقهم للأهداف، هيتسبب في مزيد من القتل، ومزيد من الدماء."

فأكملت: "طبعا، مفيش جنرال تاني هيرضى يمسك بعده، كله هيخاف يلاقي نفس المصير، وده هيدينا فرصة إننا نتولى الحكم بنفسنا، وطبعا فرصة أكبر لإجلاء المحتل سواء بالسياسة أو الثورة."

رد شريف: "طب مش محتاج أأكد على الناس اننا هنلتزم السلمية كاملة، على الأقل خلال اليوم الأول، لحد ما نتخلص من الجنرال، لأن أي أحداث عنف ممكن تسبب في إن الحكم يتنفذ في مكان تاني، أو إن الجنرال بنفسه ميجيش."

فأجبنا جميعا: "تمام."

أكمل شريف حديثه وهو يضحك: "انا هضطر أتحرك دلوقتي، عشان الحق الكمين من أوله"

فابتسمنا له عن تندره هذا، فما علمنا منه إلا الثبات في كافة مواقفه، لا يهتز ولا يتراجع.

وانطلق، وتركنا على نار هادئة في انتظاره، والاجتماع يتمحور حول سلوك العامة، وكيفية التعامل مع المندسين الذين سيحاولون استغلال الأحداث، وهدانا جورج إلى فكرة رائعة،

وهي أن نجعل الحشد يبدو وكأنهم من مؤيدي الجنرال جاءوا محتفلين بإعدام شريف، واتفقنا أن يقوم سامح بتولي الأمر، ليضمن لنا أن يكون كافة الجنود في الميدان من رجالنا.

وما هي إلا دقائق بعد انتهاء الاجتماع، حتى وردتنا مكالمة تيلفونية بأنه قد تم القبض على شريف، فتحرك سامح على الفور، وأخبرنا بأنه سيتجه إلى الجنرال لينفذ التعليمات.

مرت الأيام ببطء، ولكن الشباب عملوا بجد على عمل حشد عظيم يوم الثلاثاء، ولم يصل لنا أية معلومات عن شريف، سوى مقطع تسجيلي له مع الجنرال بالصوت والصورة، يوصف فيه شريف بأنه إرهابي، ويجب إعدامه أمام العامة، ليصبح عبرة للجميع، وأن الجنرال اختار بنفسه يوم الثلاثاء القادم، ليصبح عيدا له، ونكسة على المتمردين.

أما عن محتوى المقطع فظهر فيه شريف مسند ركبتيه إلى الأرض، ويمسك الجنود بكلتي ذراعيه، والجنرال يقف أمامه، فيدور الحوار:

الجنرال: "صدقني مش هتفضل في نفس الثقة دي، لما يتم إعدامك قدام العالم كله!"

شريف: "هنشوف مين اللي هيتم إعدامه، أنا عندي سيف فضي، السيف ده مجراش عليه دم حد قبل كده، بس هينول شرف قريب، إن هيجري عليه دم سيادتك!"

فيضحك الجنرال بصوت عال: "جايب الثقة دي منين وانت مش قادر تدافع عن نفسك!" ثم يركل شريف في صدره، باستخدام حذاءه الحديدي، فلم نسمع لشريف تألما، ولكنه تحمل الألم ورفع رأسه مرة أخرى، وقال: "انت اللي مش عارف تحمي نفسك! ومستخبي في شوية العيال دول!" ثم بصق في وجه الجنرال، فانهال عليه الجنود بالضرب، وانتهى تصوير المقطع.

ثم جاء اليوم الموعود، فبدأ في أحد أكبر ميادين العاصمة، والناس قد اجتمعوا ليشهدوا اعدام شريف، حين وصلت، لم أجد من أعرفه من الجنود، لم أجد من أعرفه من العامة، لم أجد جورج ولا يوستينا، لم أجد الشيخ ياسين، لم أجد أي من المتمردين، فلا أدري أكان هذا خطأ، أم خدعة جديدة.

اتجهت إلى المنصة، وبدأت أخطب في العامة:

"اليوم، سيكون يوما مختلفا، سيكون عيدا لجميعنا، فاليوم سوف نتخلص من الإرهاب المستشري في بلادنا، سنتخلص من رأس الأفعى، لن يصبح بعد اليوم في بلدنا مكان

لإرهابي، أو لمتطرف."

فتعالت الأصوات بالهتاف لي، والتصفيق الحار من أجلي، فقد أعجبتهم كلماتي، أو قد يكون التصفيق من أجل خروج شريف إلى المنصة المعدة خصيصا لإعدامه شنقا أمام العامة.

وصل الجنرال، ومعه سامح، وألقى الجنرال خطاب طويل ممل، لم يخل من التودد للعامة، وبأنه سعيد بقربهم، وأنه يسعى جاهدا لنيل رضاهم وتحقيق سعادتهم، ثم نادى على شريف، فخرج شريف إلى العامة، أما الناس، ليسأله الجنرال: "أدينا هنشوف أهو مين هيعدم مين! مفيش حاجة في نفسك قبل ما تموت!"

فأجابه شريف: "أكيد نفسي!"

"نفسك في إيه؟!"

"نفسي أشوف دمك سايح!"

"صعب أوي طلبك ده! اطلب حاجة أسهل!"

"محتاج دقيقة أتكلم قصاد الناس، انت بتتكلم من زمان، سيبلي دقيقة واحدة!"

"وأنا موافق، هديك الدقيقة، بس والحبل على رقبتك!"

فقام الجنود باقتياد شريف على المنصة، ووضع الحبل الغليظ في رقبته، ثم تركوه يتحدث، فقال له الجنرال: "دقيقة واحدة بس!"

فقال شريف: "انتوا عارفين إحنا بقالنا كام سنة في الهم ده؟ كل شوية حد يتقتل! حد يموت، بسبب إن في عصابة محتلين بتحكمنا بقوة السلاح، وكأنهم فارضين علينا وصاية للحماية، هو كان حد وصاهم علينا؟ ولا يعني إحنا محتاجين حد ياخد باله مننا!

أنا من هنا بأعلن، بإن فترة حكم الجنرال في بلدنا انتهت، لأنها طول ما اسمها بلدنا، يبقى احنا اللي لينا حق نحكم فيها، احنا اصحاب الأرض الحقيقين!"

فهلل العامة، وصرخ الجنرال: "كفاية! اعدموه!"، وكانت هذه هي كلمة السر المتفق عليها، فتم إطلاق قنابل الغاز على المنصة، وانطلق الجنود ليخلصوا شريف من وثاقه، واندفع بعض آخرين للإمساك بالجنرال، ولكم فرحت حينما شاهدت لمعان السيف الفضي من بين الضباب!

انقشع الدخان، والجميع على مرأى ومسمع مما حدث، وهم ذهول مما حدث، لقد تبدلت الأوضاع كليا.

الجنرال الآن يسند ركبتيه إلى الأرض، ويداه مربوطتان خلفه، ولا أحد يمسك به، وشريف مشهر سيفه في وجه الجنرال، أمام العامة، ويصرخ مخاطبا الجنرال: "الآن

ميمنعك عني؟ لا أحد!" ثم يمرر سيفه في بـرود على رقبـة الجنرال، فتسـيل دمـاؤه على ملابسه وعلى الأرض، ولكن القطع لا يبدوا قاتلا، فالجنرال لا يزال يتحرك ويصرخ، فالقاه شريف من المنصة إلى العامة على الأرض، وقال: "إن ترحموه فإنه لن يحكم ولـن يـؤذي أحدا بعد اليوم، وإن تقتلوه، فقد كفيتم كافة الناس شره."

ثم اشتعل الميدان بالهتاف، "مفيش رحمة. مفيـش رحمـة"، ثـم انهـال الجميـع على الجنرال بالضرب، فأدركت أنه هالك لا محالة، ولكـن مـا أقلقنـي حقـا، هـو اختفـاء سامح من المشهد، فأنا لا أعلم أين ذهب، ولا أين اختفى.

الفصل الثالث عشر:

السفاح

إن الصالح العام يتطلب أن يقوم الرجال
بالخيانة والكذب وقتل بعضهم بعضا.

ميشيل دي مونتين،
أحد أكثر الكتاب الفرنسيين تأثيرا
في عصر النهضة الفرنسي،
وهو رائد المقالة الحديثة في أوروبا.

1592 – 1533

بعد مقتل الجنرال ستصبح الفرصة سانحة لي لتولي الحكم، ولكن ستكون لدي عقبة واحدة، هي شريف، أريد أن أتخلص منه، فإنه سيكون الشوكة التي ستقف في حلقي، حينما أعلن نفسي حاكما للبلاد، بمعاونة المقربين لي من الجنود، فهذه البلد لا يمكن حكمها إلا من خلال الحديد والنار.

أنا لا أكترث للحريات والجلاء والإحتلال، لقد تكبدت الكثير من العناء لأصل لهذا المنصب، ولن أتركه قط، فمصالحي الشخصية متوقفة على هذا المنصب، استثماراتي الشخصية، أموالي الطائلة، كل هذا سأفقده إن تركت منصبي كنائب للجنرال الحاكم.

أنا أعلم كل كبيرة وصغيرة في هذا البلد، أعرف كل شئ عن المتمردين، وأعرف أيضا كل شئ عن النخبة الحاكمة، فأنا أنسب من يتولى حكم البلاد، لذا اتفقت مع جنودي، اعتبار الهجوم على الجنرال جريمة، وأن يقوموا بقتل كل من يتواجد في الميدان حينئذ، لأحافظ على الرأي العام إلى صفي، ولكن لم أخبر أحدا بهذا، سوى قائد الجنود، حرصا مني على عدم تسرب المعلومات إلى خارج دائرة الثقات.

لذا، انسحبت مباشرة خارج الميدان، بعد بدء اطلاق قنابل الدخان، وأمرت قائد الجنود بالقبض على شريف، وقتل كافة القيادات المتبقية، وتابعت المشهد من الخارج، فعلمت بمقتل يوستينا وجورج، وإصابة الشيخ ياسين، وأن شريف لم يتم إلقاء القبض عليه بعد، ولكنني لم أستغرب هذا، فهذا ما توقعت، هذا الفتى قام بربط طائرات الهيلكوبتر بالحبال السميكة المعلق عليها المصاعد الكهربية، وقام بتحريك المصعد للأسفل بعد زيادة وزنه وحمولته؛ ليجر الطائرات إلى الأسفل.

هذا الفتى قام باستخدام سكر الطعام، ونترات البوتاسيوم الموجود في السماد لتحضير قنابل دخانية، فلا أستبعد أنه قام بابتكار شئ ما ليهرب من هذا المأزق، ولكنني أستطيع أن أقبض عليه بمجرد خروجه من الميدان، فأنا أعلم أين المخابئ السرية الخاصة بالمتمردين، ولكنني ليس لدي قاعدة بيانات بأسماء المتمردين، أو آلية واضحة للتخلص منهم، ولكن لا يهم، طالما سيصبح كرسي الحكم ملكي.

جلست أستريح في سيارتي بالقرب من الميدان، في انتظار الخبر السعيد بالقبض على شريف الذي سيزف إلى عاجلا أو آجلا، فالمعركة تدور في الميدان بين المتمردين وهم مسلحين بأسلحة خفيفة، وجنودي ولديهم معدات على مستوى عال من الكفاءة، فهي مسألة وقت لا أكثر، فغلبني النعاس فنمت.

استيقظت على صوت انفجار قريب، نظرت في ساعتي فوجدت أنه لم يمر سوى عشرة دقائق فقط، فالتفت حولي أنظر للخارج بحثا عما انفجر، فوجدتها السيارة

الأخرى الشبيهه بسيارتي، والتي أستخدمها كتمويه كإجراء أمني وقائي، ووجدت السائق يركض للسيارة، فركب وأدار السيارة مستعدا للانطلاق مسرعا، فسألته:"في إيه!"
فأجابني في قلق وهو يتحرك بالسيارة مبتعدا عن المكان:"من خمس دقايق بالظبط كنا هنقبض على شريف! لقيناه جوه مبنى وبيصطادوا الجنود بتوعنا بالبنادق بتاع القناصة بتوعنا."
"وبعدين!"
"اول ما ضيقنا الحصار عليهم، قرروا يفجروا المبنى، على نفسهم وهما جوه! في طيارة من عندنا شافت أربعة من بينهم شريف بيهربوا، لكن للأسف الطيارة انفجرت بعد ما بلغت الرسالة دي، المتمردين وصل لهم مدد بأسلحة تقيلة، معدش لينا مكان هنا خلاص."
"استنى! وقف العربية!"
"في إيه؟"
"شريف لسه ميعرفش حاجة، هو غالبا مستني يتأكد اننا كلنا كويسين!"
"يا باشا هتلاقي شريف دلوقتي بيدور عليك عشان يقتلك!"
"شريف لسه ميعرفش عني حاجة! انا هرجع له، وهاخد معايا خمس جنود لابسين لبس عادي، هيعملوا نفسهم متمردين!"
"وبعدين؟"
"هنقبض عليه ونيجي!"
"بلاش يا باشا!"
"انتوا عارفين هو في أنهو مبنى؟"
"أيوة يا باشا، المبنى الأصفر الكبير ده!"
"تمام، استناني قصاد المدخل بالعربية، وخليها دايرة علشان نهرب بسرعة."
ونزلت من السيارة، وأشرت إلى خمسة جنود ليحضروا إلي، فجاؤوا مسرعين، فشرحت لهم الخطة، وطلبت منهم تغيير ملابسهم، ووقفت أتابع وصول السيارة إلى أمام المدخل. وما كانت إلا دقائق، حتى ارتدى الجنود ملابس عادية، بدوا فيها كأنهم من المتمردين، وانطلقنا تجاه موقع شريف، وكلنا عزم على القبض عليه.
ركضنا عبر الميدان، وصعدنا أعلى المبنى، لم يهاجمنا أحد من المتمردين نهائيا، وكلما صعدنا أدوارا أكثر، ازداد عددهم، ففكرت في أنه لو أننا قمنا بقصف هذا المبنى، وتخلصنا ممن فيه، ولكن لا جدوى، فهؤلاء المتمردون مؤمنون حقا بما يفعلونه، إن

لديهم هدفا ساميا يضحون من أجله، ويموتون دونه.

ولكنني ما أن وصلت إلى شريف، حتى وجدت العقرب المنسي، إنـه عُمـر، لقـد نسيته تماما، لقد كان يقف بجوار شريف، ويرفع إلى كتفه مدفع صواريخ، ليقـوم بصـيد الطائرات، أما شريف، فقد كان يحمل قناصة، يجول بعدستها في أرجاء الميدان، بحثا عن المندسين، وعن الجنود، ليصطادهم ويتخلص منهم إلى الأبد، فناديته: "شريف!"

فأجابني: "سامح، انت كويس؟!"

"انا كويس، بس لازم نمشي من هنا حالا!"

"ليه لازم نمشي؟ وهنروح فين؟!"

"انا عرفت إنهم هيقصفوا المبنى ده! لازم نمشي من هنا!"

"تمام" ثم رفع صوته مخاطبا الجميع:"يلا يا جماعة هنتحرك لتحت!"

فقاطعته: "لا، مش هينفع، احنا عاوزين ننزل لوحدنا!"

فرد علي:"مفيش حاجة اسمها لوحدنا، إحنا جماعة! كلنا مع بعض!"

فقلت له، وأنا أشير من النافذة إلى السيارة أمام مدخل المبنى:"شايف العربية دي، هنهرب فيها!"

فصمت شريف للحظة، ثم نظر إلى عُمر، وأشار إلى السيارة، وقال:"دي؟!"، فرددت عليه:"أيوة دي!"، فأومأ برأسه إلى عُمر، فأطلق عمر قذيفة من مدفعه، فجرت السيارة على الفور!

لم أستطع تمالك نفسي، فصرخت في وجهه:"انت بتعمل إيه!"

فأجابني ببرود: "بعمل اللي انا شايفه صح! يلا ننزل من المبنى قبل ما يتقصف ونموت كلنا!"

فنزلت معه، وانا أحاول التفكير فيما يجب أن أفعله، ونزلنا حتى وصلنا سويا إلى الدور الأرضي، فوجدت عدد المتمردين قد أصبح أقل لأنهم انتشروا في الميدان، فقلت لعُمر:"روح هاتلنا عربيات نتنقل فيها بسرعة من هنا!"، فرد عليّ:"المدرعات بتاعنا قريبة، هروح أديهم الإشارة وآجي!" ثم خرج مسرعا، فتلفت حولي، فلم أجد سوى الخمس جنود، وشريف وأنا، فانتهزت الفرصة، ورفعت السلاح في وجهه، فإذا به يقول:"انا كنت مستني اللحظة دي من زمان!"

"من زمان؟!"

"أيوة! أنا كنت عارف، وعامل حسابي كويس!"

"وعامل إيه بقى المرة دي؟ قنبلة دخان؟"

"لأ. أسوأ!"

ثم فجر شيء ما في وجهي، عرفته على الفور، إنه أنبوب نابلم صغير، شعرت بالألم ووجهي يحترق ومشتعل، ولكنني وجدته يمسك بي ويدور حولي وأصوات إطلاق رصاص بجانب أذني.

شعرت برصاصات تخترق جسدي، ولكن إطلاق النار توقف فجأة، ووجهي لا يزال مشتعل، وسمعت صوت سقوط أجساد إلى الأرض، حاولت فتح عيني اليمنى التي لم يصبها لهب، فرأيت شريف يقف مصوبا مسدسه إلى رأسي، حاولت اطفاء النار بوجهي لأستطيع التحدث، ولكن هيهات، لم أستطع، ولكنني وجدت شريف يسقط على الأرض، بعد أن ضربه شخص ما على رأسه، لم أستطع تحديد من أين أتى هذا الشخص.

ولكن إن لم أفقد بصري إثر اللهب، فإنني استطعت تمييز وجهه سريعا، إنه جوزيف بالتأكيد.

الفصل الرابع عشر:

العائد

أيها الأحرار، تذكروا هذه الكلمات:
بإمكاننا أن ننال حريتنا،
ولكننا إذا فقدناها،
فلن نستطيع استعادتها.

جان جاك روسو،
كاتب وفيلسوف جنيفي،
وأهم كُتّاب عصر العقل،
وساعدت فلسفته في تشكيل الأحداث السياسية،
التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية.
1712 - 1778

إنها خدعة لطيفة حقا، حينما يظن العالم بأسره أنك قد مت، ولكنك حر طليق، حي ترزق. فلا يظن أحدكم أن هـذا هـو الـدهاء، فـالأدهى أننـي قضـيت هـذا الـوقت محاولا اصطياد الصياد، وهذا ما نجحت في فعله.

إن قـال لي أحـدهم منـذ بضـعة أسـابيع أنـه يريـد القبـض على أحـد قيـادات المتمرديـن، لأخـبرته على الفـور بـأنه حـالم؛ فهـؤلاء لا يثقـون بأحـد ولا يسـتطيع أحـد اخـتراقهم. ولكـن مـا حـدث معـي، ينسـف أسـطورة المتمرديـن بالكامـل، فقـد شـعرت للحظات بأن هؤلاء عقولهم خاوية، لا يقدرون على شئ سوى القتل والتهديد، بالإضـافة إلى التفجيرات واستخدام الأسلحة في القتل وارتكاب الجرائم.

فبعد أن وجدت شريف أثناء محاولته الهـرب مـن سـامح، لم أسـتطع أن أقـف مكتوف اليدين وأترك شريف ليهرب، كـان علي أن أتصرف، فـاتجهت مباشرة إلى شريف، وقمت بضربة بمؤخرة السلاح على رأسه ففقد وعيـه على الفـور، ثـم اتجهـت إلى سـامح لأرى ما به، فوجدت اللعين شريف قد فجر أنبـوب مـن النابـالم في وجهـه، فكـاد وجهـه بالكامل أن يحترق.

عاونت سامح على النهوض، لم يكن يرى سوى بعين واحدة فقط، ولكنه استطاع المشي، فقمت بحمل شريف على كتفي، وحملته سريعا إلى خارج الميدان، وسامح يتحرك خلفي وهو مذهول إثر حريق وجهه، لم أدر ما وجب علينـا فعلـه، ولكننـا تحتـم علينـا الخروج من هذا المكان، فوضعت شريف جانبا وانطلقت أبحث عن سيارة للهروب، فلم أجـد سـوى سـيارة سـوداء على جـانب الطريـق، والسـائق بـداخلها، فسـحبت مسدسي، واتجهت إليه وفتحت الباب، وصرخت في وجهه: “انزل، انزل بسرعة!”

فسمعته يقول: “جوزيف؟!”

فنظرت إلى وجهه، فإذا به جورج: “جورج، انت إيه اللي جابك هنا!”

فأجابني: “شوية تفاصيل غابت عنك، مش كده؟!”

“تفاصيل إيه؟!”

“وانت مفكر إن شريف مقاليش إنك لسه عايش؟!”

“لا، وانت عرفت شريف منين؟!”

“مفاجأة مش كده؟!”

ثم سمعت صوت أنثوي أعرفه جيدا، يقول: “نزل السلاح اللي في إيدك!”

فالتفت إلى مصدر الصوت، فوجدت يوستينا تصوب السـلاح إليّـ، وتكـرر الجملـة: “نـزل السلاح اللي في إيـدك!”، فرفعـت سـلاحي في وجههـا، وقلـت: “يوسـتينا، نزلي السـلاح!”،

فردت علي:"ارمي المسدس اللي في إيدك يا جوزيف!"، فشعرت بحركة بجانبي، فوجدت جورج ينقض علي، فأطلقت لا إراديا الرصاص عليه، فسقط فوقي، وسقطنا سويا على الأرض، وقد اتسعت عيناه من الألم، والدم يسيل من صدره عليّ، ويوستينا تصرخ: "جورج! جورج!" ثم جلست تبكي على الأرض، وقد وضعت يديها على وجهها، وتركت سلاحها، فنهضت مسرعا وركبت السيارة، وانطلقت بسرعة إلى حيث تركت شريف، فوجدته مكانه لم يتحرك، ووجدت سامح يجلس بجواره، فوضعت شريف بداخل السيارة، وحينما حاولت أن أجعل سامح يستفيق، لم يستجب، ولم يتحرك، تحسست النبض برقبته، فلم أجده ينبض ولا يتنفس.

قررت تركه على الفور مكانه، وانطلقت بالسيارة وأنا لا أعلم إلى أين سأتجه، فقررت الاتجاه إلى شاطئ البحر خارج العاصمة، ريثما أختبئ قليلا وأحدد ما سأفعله.

شوارع العاصمة خالية من البشر، الجميع مختبئون، لا أحد يعلم ما سيحدث في الغد، لدينا جنرال مقتول، ولأن سامح معاونه، فسيكون سامح هو الحاكم الجديد، ولكن سامح قد مات، من سيكون الحاكم الجديد إذن؟! شغلني التفكير في هذا الأمر كثيرا، حتى وصلت إلى الشاطىء، فأوقفت السيارة، ونزلت منها، ثم وقفت أمام البحر أفكر فيما حدث، وما سيحدث. الجميع الآن يظنني ميتا، وسامح هو الوحيد القادر على إصلاح الوضع، ولكنه الآن ميت.

القصة بدأت حينما خاطبني أحد الضباط من إدارة مكافحة الإرهاب، وحدد لي موعدا للقاء أحد الأشخاص المهمين بالدولة، ذهبت للحضور، فوجدت سامح في انتظاري، وأخبرني أنه يريد القاء القبض على أحد الشخصيات القيادية بمجموعة المتمردين الإرهابية، فأخبرته أن هذا مستحيل، ولكنه وضح لي أنهم قد توصلوا إلى شخص ما قد يقودهم إلى القيادات، هذا الشخص مهتم بالدعوة إلى الإسلام، وسيكون عليّ أن أتعرف عليه، وأحاول اجتذابه لأن يدعوني إلى الإسلام، وبهذا سأصبح أحد الأشخاص المقربين له، وسيتسنى لي حينها معرفة العديد من المعلومات التي قد تفيد للوصول إلى أحد القيادات.

لم أتوقع أن يكون شريف أحد القيادات، ولكنه أوصلني لمرحلة جعلني فيها مذبذا، لست مسلما ولست مسيحيا، أحيانا كنت أشعر بأنني أصبحت واحدا من المتمردين المسلمين، فكنت في بعض الأحيان أكره أن أتعامل مع الفتيات في الكنيسة، وأود أن أركض إلى المسجد لأصلي، وفي بعض الأحيان الأخرى، أود أن أفعل كل ما يناقض الإسلام، فشربت الخمر، وفعلت كل ما يحلو لي.

أحيانا كنت أشعر وأنني سأعترف لشريف وأخبره باتفاقي مع سامح، وفي أحيان أخرى، كنت أود أن أنطلق لأخبر سامح بأنني لن أستطيع الاستمرار، إن للإسلام سحر لا أفهمه، إنه يطهر القلوب.

اتفقت مع شريف أنني سأشهر إسلامي عما قريب، وفي اليوم المحدد، سأختفي، وسنجعل الأمر يبدو وكأنك قتلت، وسنستغل وجود بعض المتمردين الجنود، وبالمستشفى أيضا لاستبدال الجثة، ولكنني أخبرت سامح بهذا، فوافق على الفكرة، وقال أنه سيجعلني أختفي فعليا، وكأنني قد قتلت فعليا، فيظن شريف أن هذا حقيقي، وسأتمكن من الحركة لاصطياده وقتله، والتخلص منه نهائيا.

سمعت صوت حركة خلفي، فالتفت لأجد شريف يقف أمامي، ويرفع سلاحه في وجهي، وهو مبتسم ابتسامة عريضة:"عدى وقت كتير!"

فأجبته بنفس الابتسامة:"شكلي وحشتك!"

"أكيد! مش كنا مع بعض يوميا؟!"

"وتفرق إيه إذا اتلاقينا بس القلوب مكانش بينها لقاء؟!"

"بقيت شاعر!"

ضحكت وقلت له: "من يومي والله!"

"طب ليه؟!"

"ليه إيه؟!"

"عشان إيه؟!"

"آه، فهمتك. عشان كنت هبقى الراجل التاني بعد سامح، وبعد ما نديك الفرصة تقتل الجنرال، هتكون الفرصة كويسة قدام سامح عشان يبقى الراجل الأول!"

"وانت هتكسب إيه؟!"

"انت عارف أكيد، الناس بتيجي وبتروح، وزي ما سامح هيمسك، أنا كنت همسك بعده، وهتخلص منه بمجرد ما يقنن أموري تاني."

"طب وبعدين، وبعد ما تمسك؟ مش خايف م المقاومة؟!"

"مقاومة إيه!! انت مش فاهم، من النهاردة المقاومة هتنتهي، وانت هتتمسك وتتحاكم تاني! ومفيش حد في الدنيا هيحميك، من النهاردة الشعب هيرفض المقاومة، هيرفض المتمردين، معادش هيبقى ليهم وجود!"

"وانت مش شايف إن ده سبب أدعى يخلي المقاومة تبدأ تتحرك جوه الشارع، الجنرال خلاص مات!"

“وهي القصة هتنتهي عند الجنرال؟ الكلب هيروح، وهيجي كلب غيره!”
“مفيش مشكلة، اللي مشى واحد، يمشي ألف!”
“كلام! المعطيات والمقاييس بتختلف من وقت للتاني، مش ده كلامك يا شريف!”
“يوسف! انت عارف إني بحسبها ألف مرة قبل ما أنفذها، ومبدخلش معركة خسرانة، تفتكر إيه اللي خلاني اجي أواجهك، ومهربش بالعربية وأمشي؟!”
“مش عارف، يمكن وحشتك؟!”
“لأ. اللي انت متعرفهوش، إن قيادات الاحتلال بعتوا جنرال تاني في طيارة مخصوص دلوقتي، وجاي يمسك الحكم هنا، وانت معدش ليك مكان فيها، يبقى الأولى نريح الدنيا منك ومن شرّك!”
“وانت عرفت منين!”
فأخرج لي من جيبه هاتف نقال، وقذفه إليّ، فأمسكت به ونظرت فيه، فوجدت به مكالمة تيليفونية، مستمرة أكثر من ساعتين، مع شخص يدعى عُمر.

الفصل الخامس عشر، والأخير:

الشريف

قاوم فيداك الإعصار،
لا تخضع فالذل دمار،
وتمسك بالحق فإن
الحق سلاحك مهما جاروا.
قاوم فيداك الإعصار،
وتقدم فالنصر قرار،
إن حياتك وقفة عز
تتغير فيها الأقدار.

من أغنية يا أيها الكبار(1998)،
لجوليا بطرس،
مغنية لبنانية
1968.

حينما تتبدل المفاهيم والقيم، وتجد الحق باطلا، وترى الباطل حقا، لن يمكنك تحديد الصواب من الخطأ، إلا أن يكون لك ضمير يقظ في ذاتك، يهديك الصراط المستقيم الذي خلقه الله، ينير لك بصيرتك، وتقتبس منه نورا تنير به بصيرة من حولك لتهديهم، ولكن ماذا عليك إن رفضوا؟! أتتركهم وشأنهم! أم تمدهم في طغيانهم؟!

لم أكن أعلم أن جوزيف قد تم تكليفه من قبل سامح، ولم أكن لأتوقع خيانة سامح لنا، فنحن لا نعتبر أنفسنا متمردين، ولكننا نعتبر أنفسنا متنورين مستنيرين. فهؤلاء الذين يعيشون عيشة الأنعام للأكل والنوم لم ولن يهنأوا بحياتهم، فليس لديهم سوى التذمر من غلاء الأسعار وصعوبة المعيشة، فيضيعون عمرهم بأكلمهم في محاولة لإيجاد مسكنات دون علاج المرض.

فالمرض في الأصل مترسخ في الأذهان العفنة، في الضمائر الصدئة، هؤلاء الذين رضوا بالذل والهوان من أجل حفنة من المال، أو من أجل عيش آمن. ولكن، ما يكون الأمن دون الكرامة، دون الحرية، دون العدل. أترى نفسك كالكلب تلهث خلف فتات مما أكله البشر! أترى نفسك تفعل الصواب لأنك لا تملك سوى أن تفعله، أم لأنك مقتنع به! جميع المتنورين يعلمون بأن محاولات إنشاء مدينة فاضلة تحت تهديد السلاح لن يحدث، وهذا ما لم يراه الأنعام، ولهذا خرجنا.

مذ أن بدأنا تجميع أنفسنا للتخلص من الاحتلال المفروض على دولتنا، والمجتمع الدولي لا يتحرك، قررنا أن نعمل على جانبين، الأول هو العمليات النوعية التي ترهق قوات الاحتلال ماديا ونفسيا، وتسبب له خسائر بشرية ومادية أيضا، والثاني هو العمل على توعية العامة من الاحتلال، وكيف يجب أن تكون الحياة الكريمة التي يحلمون بها.

اتفقنا على الهدف ولكننا اختلفنا على الطريقة، فكان عُمر أحد أنصار حمل السلاح ومحاربة المحتلين حتى يفنوا، أو يرحلوا عن بلادنا، ولكنني رأيت أن الطريق السلمي اللاعنيف هو الخيار الأفضل، فانشغل عمر بالتدرب على استخدام كافة أنواع الأسلحة، وانتقى لنفسه مجموعة من الشباب يدربهم؛ ليدربوا غيرهم ثم يخرجون للعمليات الفدائية والاستشهادية، أما أنا فقررت أن اتعلم أفضل وسائل للدفاع عن النفس، مثل استخدام الأسلحة الخفيفة، ودرست الكيمياء لأتعلم كيفية صناعة المتفجرات، والقنابل الضوئية، وقنابل الدخان، والمواد المخدرة، والسامة، وغيرها. كرست حياتي لأصنع قاعدة شعبية يمكنا شل حركة المحتل بأكلمه حين تقرر الإضراب عن العمل، وحاولت، ولكنني لم أنجح، وانتهى بي المطاف هنا.

ها أنا الآن أقف أمام ذلك المتعجرف، الذي ظن أنه سيوقع بي، ولكنني كنت أكثر دهاء ومكرا منه، فحينما استفقت بعدما ضربني على رأسي، ووجدت نفسي مُلقى على الأرض، وسامح يسند ظهره إلى الحائط، مشغول بدمه الذي ينزف، فقمت من مكاني في هدوء، وانقضضت عليه من الخلف، وامسكت برقبته حتى اختنق، ثم أجلسته إلى الحائط حتى بدا كمن جلس في انتظار أحدهم، وأخرجت هاتفي واتصلت بعُمر، وطلبت منه أن يتعقبنا بالمدرعة التي ذهب ليحضرها، وأوصيته ألا يغلق الهاتف، وأن يبقى المكالمة بيننا قدر الإمكان، حتى يستطيع أن يسمع ما نقول، ونحدد أين نحن، إذا ما أصابني مكروه.

والآن جوزيف يقف مذهولا مما رأى، لم يتوقع أن يكون بذلك الغباء، فقلت له: "إيه رأيك!"

فأجابني: "في إيه!"

ضحكت، وقلت: "تيجي تصيده يصيدك؟!"

"انت عارف ان مفيش حد يقدر يصيدني، أنا بالنسبة لك دلوقتي شبح!"

"لا شبح ولا حاجة، انت بس على بُعد دقايق من الموت، يعني انت تعتبر ميت دلوقتي!"

"وليه مش انت اللي ميت!"

ثم رن صوت عُمر في المكان، وعبر الهاتف: "عشان انت مُت خلاص!"، ورأيته يقف خلف جوزيف مباشرة، ليركله في ساقه، فيوقعه أرضا. فتحركت مسرعا إليه، قبل أن يقتله، وناديت عُمرا: "عاوزين حبل نكتفه بيه!"، فأجابني: "تكتفه ليه! ده كلب ولا يسوى! سيبني أفجر دماغه!"

"لأ، سيبه!"

ثم التفتُ إلى جوزيف: "انا مش هموتك، أنا هسيبك هنا! عارف ليه؟!"

"ليه!"

"عشان تتعذب شوية زي ما عذبت غيرك، وفي الآخر الغربان والكلاب هما اللي ياكلوك! هيفكروك ميت! وانت في الحقيقة حي، مش هتقدر تتحرك أو تصرخ عشان يبعدوا عنك، انت كل اللي فكرت فيه كان مصلحتك! وهم كل اللي هيفكروا فيه مصلحتهم، إنهم ياكلوا، ويسدوا جوعهم! عشان تعرف مدى التشابه بين غراب وغراب، غراب مزروع في مجتمع نضيف، وغراب عايش في مجتمع قذر، الاتنين مبيشوفوش إلا مصالحهم، وبيعيشوا على أقذر حاجة في الكون، الجيفة، الكائنات الميتة!"

فاجئني جوزيف بحركة حادة، اسقطني فيها على الأرض، وانطلق يفر هاربا، ولكنني سمعت أصوات اطلاق نار كثيف، فالتفت لأرى من يطلق الرصاص، فوجدت عددا لا بأس به من جنود الاحتلال يطلقون النيران علينا، فدحرجت جسدي بعيدا، ثم انطلقت وأنا أشير إلى عُمر بأن يتراجع، ولكنه لم يتراجع، فقد انطلق إلى حيث كنت أقف، لم يهتم بصراخي فيه ليهرب، فركض حتى وصل إلى بقعة من الرمال ثم مد يده ليسحب شئ ما من فوق الأرض، فأصيب على الفور برصاصة، لم أتبين أين أصابته، ولكنني ظللت أركض حتى جلست خلف المدرعة التي أتى بها عُمر ونظرت إليه.

لقد وجدته يزحف صوبي، يبدو أن الرصاصة أصابته في ذراعه، ولم تنل منه شيئا، فركبت المدرعة، وسرت بها للخلف حتى وصلت بالقرب منه، وأوقفت المدرعة حاجزا بين الرصاص وبين جسد عمر، ثم نزلت وسحبته إلى داخلها، وأنا أسأله:"كنت بتجيب إيه!"

فأجابني: "الموبايل بتاعك، لو كنا سيبناه، كانوا هيقدروا يوصلوا لينا كلنا!"

شعرت بالراحة حين سمعت هذه الكلمات، لا أدري لِمَ، ولكنني سعدت بوجود أخ كهذا بجواري، فقلت له:"الله يحفظك، شفت جوزيف؟!"

فقال: "بقى عامل زي المصفاة، بس كويس، خليه يدوق اللي كان بيعمله في الخلق!"

لم أشعر بالأسى تجاه جوزيف، فأجبته:"عندك حق!"

ثم انطلقنا، وسيارات جنود الاحتلال من خلفنا تطلق علينا الرصاص، وأنا خلف المقود لا أدري ما يمكننا فعله، فقطع صوت عمر حبل أفكاري:"هنعمل إيه!"

فأجبته بقلق:"مش عارف، انت كويس؟!"

"متقلقش عليّ، المهم لازم تفكر في حاجة!"

فقلت له:"مش عارف!"

فأجابني:"مش عارف إزاي؟! انت دايما عندك حل لكل حاجة، حاول تبتكر حاجة، انت خليتنا نربط طيارات هيلكوبتر في حبال الأسانسير، وننزل الأسانسير للدور الأرض فيشد الطيارة لتحت! حاول تفكر في أي حاجة!"

لم أدر لِمَ يقول هذا، ولكن كلماته كانت بمثابة إلهام لي، فقد وجدت نفسي منطلق بالسيارة تجاه المدينة، ولكنهم خلفي، ومن ورائهم منحدر شديد أمام البحر مباشرة، فاستدرت بالمدرعة، وتحركت في مواجهة الجنود، وفي اتجاه المنحدر، كنت على علم بأنهم سيخافون منّا، وسيفسحون الطريق لنا؛ خوفا من أن نفجر أنفسنا، أو أن يكون في جعبتنا ألاعيب أخرى لا يعلمونها.

سمعنا صوت الهاتف يرن، فأجاب عُمر على الفور، وقام بفتح السماعة الخارجية، فميزت صوت الشيخ ياسين: "عُمر، اهرب من المكان اللي انت فيه! اهرب بره البلد!"

فأجابه عمر: "في إيه عندك يا شيخ ياسين!"

سمعت الصوت من الطرف الآخر: "الجنرال الجديد، مفيش عنده أي رحمة أو إنسانية، الجنرال أعلن إن سكان العاصمة متمردين، وكل اللي ماشيين في الشارع بيتقتلوا، والستات والبنات اللي ماشيين في الشوارع بيتخطفوا، ومش عارفين بيروحوا فين، وبيلفوا ع البيوت بيت بيت، بيدوروا على أي سلاح فيه."

وقد اقتربت لحظة الاصطدام، كدت أتردد للحظة وأوقف المدرعة إلا أن وجدت سائق السيارة المواجهة قد انحرف وصدم سيارة أخرى ليتفادى الصدمة معي، وسمعت الشيخ ياسين على الطرف الآخر يقول في صوت مشوش، يحيط به صوت إطلاق نيران كثيف: "اهربوا في أقرب وقت ممكن!"

فصرخت في عُمر:"افتح الباب اللي جنبك بسرعة، افتح الباب!"

ثم قفزت المدرعة في الهواء، عبر المنحدر، متجه لتسقط في الماء، فسمعت صوت الشيخ ياسين يصرخ عبر الهاتف، وكأنه أصيب بطلقة نارية، ولكنني لم أعط لعقلي فرصة للتفكير فيما حدث، فقد دفعت جسد عُمر من الباب بجواره، وقفزت معه خارج المدرعة لتسقط بمفردها في الماء، ونسقط نحن أيضا، ولكن دون أن يصيبنا مكروه، وشعرت بالماء البارد يحيط بجسدي الدافئ، وعُمر يصرخ في:"ليه مقلتليش! مش كنا استنينا لما المدرعة تنزل المياة وبعدين خرجنا!"

فأجبته:"ده مستحيل، ضغط المياة ع الباب مش هيخليك تقدر تفتحه! ثم بدأت أسحبه عبر الماء لنختفي عن الأنظار، فقد لمحت بعض الجنود يقفون بالأعلى باحثين عن أثر لنا، ولكننا سبحنا مسرعين إلى جانب من الشاطئ، وجلسنا هناك لنلتقط أنفاسنا، فقلت لعُمر: "لازم نتحرك من هنا بسرعة، هيجيبوا كلاب ويدوروا علينا!"

فأجابني: "قولي بس الأول، انت ليه خططت ده كله من الأول!"

بدأت أسترجع الذكريات، مذ بضعة أسابيع، حينما تعرفت على جوزيف، واتفقنا على أن يبدو وكأنه قُتل، لأستطيع دخول السجن والوصول إلى صلاح الدين، وهو من تولى تعذيب أصدقائنا، وأحبتنا، كان التخلص منه، فقد كانت لديه معلومات كثيرة عن أغلبنا، إذ اعترف على يديه الكثير من المتمردين، ومعرفتي بجورج، ومينا، ويوستينا، الذين لا أعلم عنهم أي شئ حتى الآن، ولم أحصل على فرصة مناسبة للاتصال بهم

للاطمئنان عليهم، ثم سامح، ومصطفى الذي على الأرجح سيكون ذا شأن في الحكومة الجديدة، ولا أظنه خائنا كسامح، ولكنها حلاوة الكرسي والمنصب، التي تغير النفوس فتجعل من الشخص الطيب الهادئ المتسامح، شخصا متعطشا لمزيد من القوة والجاه والنفوذ، لا يهاب أحد ولا يتردد في قتل البعض ليحصل على المزيد، وتذكرت سيفي وهو يتحرك في رقبة الجنرال، وشككت في نفسي، هل أصبحت شخصا متعطشا لمزيد من القوة والجاه والنفوذ، هل أصبحت لا أتردد في القتل لأحصل على المزيد!
سمعت صوت عمر يقطع حبل أفكاري وهويقول:"شكلي بقلب عليك المواجع، يلا نقوم! زمانهم جايين!"
فتحركت خلفه لنخرج من مكاننا وأنا أقول:"أبدا، بس جوزيف كان ممكن يبقى مكسب كويس! ولو كانت الخطة نجحت كان زمان حالنا هيبقى أفضل دلوقتي!"
فأجابني وهو يضحك: "صدقني الموضوع مفيش فيه لو كانت نجحت أو كانت منجحتش، فساد النوايا هو اللي أفسد الخطة، فلو صدقت نوايانا جميعا، لنلنا ما نحب!"
"عندك حق، انت شايف ايه اللي المفروض نعمله دلوقتي! نختفي؟!"
"أكيد لأ، انت بس محتاج شوية وقت تنظم فيهم صفوفك تاني، وتختار رجالتك بعناية، وترجع تاني تقاوم وتجاهد أكتر من الأول!"
"انت مصدق اللي بتقوله؟ انت مش سمعت الشيخ ياسين وهو بيتكلم!"
"أكيد هنلاقي طريقة، ولا انت خلاص كل أفكارك خلصت؟!"
"أكيد في طريقة لعلاج ده كله، بس مش هتيجي من فردين بس في مجتمع كبير زي ده، عشان الخير يجي، لازم الناس كلها تكون طالبة الخير، بنية صادقة، وتعمل للي هي بتطلبه ده، وبعد كده، نبقى نقيس المكاسب اللي بنحققها."

تحت غطاء الواجب،
فقط الأعداء هم من يتحدثون
سويا بصدق، أما الأصدقاء والأحبة،
فيكذبون كذبات لا متناهية.

ستيفن كينج
كاتب ومؤلف أمريكي
حائز على ميدالية مؤسسة الكتاب القومية
1947